سلسلة كتب «العنقاء»

خالدة

بنت الخامسة عشرة

ـ قصص لكتاب مسلمين صينيين

خالدة

بنت الخامسة عشرة

ـ قصص لكتاب مسلمين صينيين

اعداد : اقبال مجدى

سلسلة كتب « العنقاء »

الطبعة الاولى . . . . عام ١٩٩١



لدار النشر باللغات الاجنبية
٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين ـــ الصين
الرمز البريدى ١٠٠٠٣٧

ISBN 7—119—01360—2

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

خالدة .. بنت الخامسة عشرة

بقلم : اقبال مجدى من قومية القازاق

— ١ —

حانت اخيرا فترة استراحة خلال العمل ، طالما ترقبتها بشوق .

لم اتوقع انى سيئ الطالع الى هذا الحد . هذه اول مرة فى حياتى امسك فيها مقبض الفأس ، ولكنى لم اعمل بها الا ساعتين حتى امتلأت راحة يدى بالنفطات ، وسرى ألم شديد الى اعماق قلبى من ذراعى اللتين تخدرتا منذ وقت طويل . لكننى اكره ان اظهر بمظهر الضعف امام هؤلاء الفلاحين الاقوياء ، فانتهزت فرصة الاستراحة ، وتجنبت رؤية اول صديق تعرفت عليه فى القرية ، وهو داود ابن صاحب البيت الذى اسكن فيه ، وعبرت الكهريز القديم متسللا فوصلت الى شاطئ البركة بغية ان امكث وحدى فى هدوء فترة من الزمن .

لم يكن احد حول البركة . وكانت شمس الصباح فى اوائل

الربيع معلقة في السماء الشرقية ، وكانت البركة المشعشعة بنور اخضر تبدو كأنها مرآة صافية تعكس بكل هدوء قبة السماء العميقة التي لا يسبر لها قرار ، وعلى الشاطئ المقابل أجمة من شجيرات الصفصاف التي تزهو في اعجاب بقدها الممشوق واغصانها النضرة ، يتراءى بينها صف من البيوت اللبنية حيث تترامى اصوات الدجاج والبط ممتزجة بضحكات الفلاحين المستريحين مترددة فوق البركة الهادئة .

تلفت حولي مرة اخرى . وبعد ان تأكدت من خلو المكان لجأت الى ركن خفي تلتف حوله اعشاب كثيفة ، فجلست فيه ، وبسطت راحتي كسير الفؤاد اتأمل تلك النفطات الحمراء اللامعة ذاهلا ، وألوم نفسي : " ما انت ؟ كيف اصبحت ضعيفا كل هذا الضعف ؟ ألا ترى داود قد عمل ملوحا بالفأس مثلك نصف النهار دون ان يلهث ولو مرة واحدة ؟ ! "

بينما انا على هذه الحال اذا بمويجة تتهادى نحو الشاطئ ثم تختفي صامتة بعد ان تترك الاعشاب المائية الخضراء تهز رؤوسها في نشوة ، ثم تعقبها مويجات تنداح واحدة تلو الاخرى . . .

اخبرتني حواسي وهي لا تخطئ انه لا تتحرك اى نسمة في هذا الوقت ، ولكن من الذي حرك صفحة المياه الهادئة ؟ رفعت رأسي حائرا ، ففاجأني ان رأيت فتاة على الشاطئ الآخر تغسل يديها وتحييني في خجل :

— السلام عليكم .

— وعليكم السلام .

لا ادرى متى ظهرت هذه الفتاة على الشاطئ المقابل ، ولا ادرى ايضا ان كانت قد رأت النفطات فى كفى ، فداخلنى اضطراب ، واسرعت لأدخل يدى فى الماء متظاهرا بغسلهما مثلها . انداحت المويجات من تحت يدى بسرعة لتلتقى فى عرض البركة بالتى اقبلت من الشاطئ الآخر ...

بعد برهة تساءلت : كيف تستطيع ان ترى كفى وهى على الشاطئ المقابل ؟ ومن اجل اخفاء الاضطراب الذى انتابنى قبل قليل سألتها متمتما :

ـ انت .. كيف تبقين وحدك فى هذه الاجمة الصغيرة ؟

ـ أترى فى ذلك غرابة ؟ انها ملك لى .

ثم قهقهت ضاحكة ، لعلها تضحك من الحيرة التى بدت على منذ لحظة . ولكن هذه الضحكات الرنانة تبدو لى كمياه ينبوع رقراقة تنساب الى اعماق قلبى مترنمة .

ـ ألست ذلك الشاب المثقف الذى جاء الى قريتنا امس ؟ نعم ، اعرف اسمك . اسمك تورشون ، أليس كذلك ؟

ـ كيف عرفت اسمى ؟

لا بد اننى ابديت ابتسامة دهشة ، فأنا لم اتوقع قط ان فتاة ستصل بها الجرأة الى المبادرة بالسؤال عن اسمى . لكن الذى حدث امامى قد تجاوز حد السؤال ، بل .. واحسست فجأة بموجة دفء تندفع الى اعماق قلبى ، فشوشت تفكيرى تشويشا كاملا .

ـ اما هذا فأنا ...

رأيتها تطرف بعينيها الواسعتين اللامعتين فى فرح وسرور ، وهى تهم ان تقول شيئا ، الا انها توقفت فجأة وضيقت ما بين حاجبيها ، تنظر الى ما خلفى ولزمت الصمت . حينئذ دوى من خلفى صوت غليظ قائلا :

— آه ، لقد كبرت بنتنا خالدة ، فأصبحت تعرف كيف تغازل الفتيان .

— أف ، يا ملعون !

قالت خالدة وقد توردت وجنتاها ، ثم نهضت تجرى كنسمة خفيفة نحو اجمة شجيرات الصفصاف . فاكتشفت حينئذ ان قوامها فى غاية الرشاقة والاعتدال فهى شبيهة بأغصان صفصاف تتمايل فى النسيم العليل . ولبثت اتطلع شارد الفكر الى طيفها الذى اختفى خلف الاشجار ، وانتابنى شعور بالخيبة كمن فقد شيئا . لكن لم تترام الى سمعى من خلف الاشجار الا اصوات متقطعة من صياح الدواجن . . .

فجأة شعرت بيد قوية تحط على كتفى ، واذا بصوت يقول :

— يا صديقى ، كيف تنظر الى هذه "الدجاجة الصغيرة" ذاهلا شارد الفكر ؟

تذكرت فجأة ذلك الصوت الغليظ الذى طرد خالدة ، وثارت فى نفسى موجة غضب خفى ، فالتفت خلفى بحنق ، واذا به داود يبتسم الى وهو يغمز بعينيه . يا له من رجل بغيض ! حدجته بنظرة استياء وانصرفت غاضبا . . .

— ٢ —

ظللت لا التفت الى داود فى اليومين التاليين . لكن رئيس الفرقة الانتاجية اسكنني فى بيته منذ دخلت القرية ، واصبحت اتناول معه الطعام الذى تعده امه فى الوجبات الثلاث كل يوم وعلى مائدة واحدة . فما زادني ذلك الا ضيقا وحرجا . كنت ارى ان من الاصوب ان اطبع علاقتى به ، لكن كلما تذكرت ما حدث قرب البركة فار الغضب فى صدرى . وتذكرت اخيرا نصيحة ابى لى قبيل سفرى ، فأدركت ان هذا ربما يكون من التصرفات الصبيانية الكريهة التى نصحنى ابى مرارا وتكرارا بالتغلب عليها والتى لا تزال تجر على المشاكل . كيف يهون على ان اغضب كالصبيان لأتفه الاسباب ، وقد اصبحت رجلا مكتمل الرجولة ؟ فبادرت الى التفاهم معه او بالاحرى ان هذا التفاهم تمثل فى قبولى بالرد على اسئلته ، اذ انه لم يعر غضبى اى اهتمام فى هذين اليومين ، بل ظل راضيا منشرح الصدر كعادته ، كأن كل شيء فى العالم لا يأتيه الا بالفرح والرضى .

لكن انتقلنا الى العمل فى الحقول لاصلاح قنوات الرى منذ ذلك اليوم بعد الظهر ، فلم اعد ارى تلك الفتاة الحسناء خالدة ، الا ان قامتها الهيفاء كغصن صفصاف لا تزال تتمايل امام عينى مثيرة فى نفسى موجات غريبة من الخيبة والاضطراب . وكلما حدث لى ذلك انتابنى غضب خفى على داود .

ذات صباح خرجت مع داود الى العمل . وبينما نحن نخرج

مبتسمين من مدخل القرية رأيت خالدة تعبر الجسر الخشبى قرب البركة متجهة نحو اجمة الصفصاف . كانت تمشى رشيقة الخطوات ، وقد لبست فستانا ضيقا ابيض اللون ذا رسوم هادئة يزيد قدها الممتلئ المعتدل جمالا وفتنة . فسرت فى قلبى نشوة لم استطع كبحها ، وتوقفت عن سيرى ، وجذبت داود وقلت له مشيرا اليها :

— انظر ، ما اجمل هذه الفتاة !

تتوقف داود ، وانزل عن كتفه الفأس ، وامسك بيديه طرف مقبضها ثم انحنى قليلا يحدق الى خالدة مضيقا عينيه كأنه يود ان يتفرسها بدقة ، ثم ابتسم الى ابتسامة ماكرة قائلا :

— فعلا ؟ ! ما احسن اكتشافك ! ماذا قالت لك ذلك اليوم ؟ انى . . انى استغرب كيف استطاعت ان تأسر قلب صديقى بهذه السرعة المدهشة !

آه ، لو لا اننى اسكن فى بيتك ولو لا اننى اشاركك الطعام . . وبذلت جهدى لكبح عواطفى الا ان الكلمات التى نطقت بها كانت اشد صلابة من الحجارة :

— اسرت قلبى بجمالها طبعا ! ما قولك فى هذا ؟

— آه ، فهمت الآن يا صديقى ، ولكن هل تعلم انها ما تزال فتاة صغيرة دون الخامسة عشرة ؟

— هذا كذب ! تريد ان تخدعنى !

من يستطيع ان يصدق هذه الاكذوبة اذا رأى قوام خالدة الرشيق الجذاب ؟ اغلب الظن ان داود وقع فى هواها ، لكنها

لا تبادله الحب ، فلما رآها تتودد الى فى ذلك اليوم ثارت فى نفسه غيرة حقيرة ، وبدأ يحتال على الآن بهذا الكلام الحلو الكاذب ، والا فكيف ندت منه الكلمات السمجة فى ذلك اليوم ؟

ازداد داود انحناء ، فأسند صدره الى طرف المقبض يتأمل طيف خالدة ، ثم تنهد وهو يهز رأسه قائلا :

– يا لك من صديق قليل العقل جامد الفكر ! حتى الشيطان لا يصدق انها لم تبلغ الخامسة عشرة وهى على هذا الجمال والكمال . لعلك لم تر عمتنا بوشاهان ، اذا رأيتها فلا بد ان تقول لك : ان ابنتى خالدة لم تبلغ الخامسة عشرة هذه السنة . لقد تعود اهل القرية قولها هذا منذ سنوات . ولهذا داعبتها متعمدا ذلك اليوم بأنها "قد كبرت" .

اثار كلام داود فى نفسى شيئا من الخجل ، لكنى تذكرت فجأة اهانته لخالدة بتسميتها "الدجاجة الصغيرة" فشعرت انه لم يعد فى استطاعتى التغاضى عن ذلك ، فقلت :

– ولكن لماذا تدعوها "دجاجة صغيرة" ؟

فانفجر داود مقهقها ، وقال وهو يربت كتفى :

– هيا بنا يا صديقى حتى لا نتأخر عن العمل باستراق النظر الى فتاة . لا داعى الى ان تنظر الى شزرا . يمكن ان تتصور كم يحزننا ان نسب فتاة جميلة ! وكيف يهون على ذلك ؟ ! ولكنك لم تمكث فى قريتنا الا اياما حتى بدأت تتحيز لفتاة لا علاقة لك بها . حسنا سأخبرك بكل شىء . "الدجاجة الصغيرة" ليست عبارة شتم وانما هى لقب جميل اطلقه عليها فتيان القرية

سرا . واعلم انها كانت تشرف على عملية الحضانة الاصطناعية فى مزرعة الدجاج والبط ، فتم فى يدها تفريخ ثلاثمائة فرخ دفعة واحدة ، وذاع هذا اللقب الجميل بين الفتيان منذ ذلك الوقت . لا بد ان تضحك الآن ، أليس كذلك ؟ آه ، يا له من شيء جميل ...

كنت لا ازال اشعر بألم لاذع فى كتفى التى وقعت عليها يده ، ولا ادرى أكانت يده قوية اصلا ام انه ربتنى بهذه القوة عمدا . لكنى لاحظت من ملامح وجهه انه لم يتعمد ذلك . ربما اسأت الظن ؟ على كل حال تركت ذلك مؤقتا ، ثم سألته :

ــ آه ، ما دامت هى كذلك ، فكيف لا يتودد اليها احد من فتيان القرية ؟

ــ وكيف لا ؟ فأنا مثلا قد جربت وما زلت ، لكنها فتاة متعالية ، برغم اننا فتيان القرية قد حاولنا جهدنا لكسب ودها ، لكنها لا ترينا الا كل تجهم . اما الآن فهناك فتى يستطيع الاستيلاء على قلبها اذا لم يخطئ ظنى .

توترت اعصابى فجأة ، وقلت دون تفكير :

ــ من ؟

ــ انت !

وغمزنى داود غمزة ماكرة ، ثم قال مبتسما :

ــ ان العمة بوشاهان ارملة بلا معين ، تعيش معلقة آمالها على ابنتها الوحيدة . وانت بلا شك شاب ذو علم وادب ، ربما سيبتسم اليك المستقبل ذات يوم . فأنت وحدك جدير بأن تكون

الصهر الذى تتمناه عمتنا العجوز .

آه ، يبدو لى انه لا داعى الى اى غضب على داود هذا . . .

فى طريق عودتنا من العمل ظهرا صادفنا خالدة وجها لوجه عند مدخل القرية ، فبادرت تحييني ، وهى تنظر الى بابتسامة رقيقة ، فخفق قلبى خفقانا شديدا ، ورددت بدورى على تحيتها بأدب . لكن لم اتوقع ان يفاجئها داود بهذا السؤال المحرج :

ـ يا خالدة ، ما رأيك فى فتانا هذا ؟

ـ أف ، يا لك من ملعون . . .

وسرعان ما احمرت وجنتاها ، فطأطأت رأسها مضطربة ، وابتعدت مسرعة . . .

ـ ٣ ـ

عند العصر حدث نزاع بيني وبين داود على عصا الحمل . وهذا ليس غريبا ، اذ مضت على اقامتى فى بيته ايام ولم تسمح لى العمة عائشة ولا داود بالذهاب لحمل الماء . وانا اعلم اننى لم انزل فى بيته ضيفا ، فكيف لا يخجلنى ، وقد بلغت اشدى ، ان انتظر تناول الطعام مرتاح البال دون ان اؤدى اى عمل من الاعمال المنزلية ؟ لكن جهدى هذه المرة ذهب سدى ايضا .

ـ يا بنى ، اننى اعلم مدى مشقة العمل بالفأس ، لكنك ثابرت عليه دون اى شكوى من التعب برغم انك لم تشترك فى الاعمال الزراعية من قبل . لقد اعجبنى ذلك كل الاعجاب ،

اما حمل الماء فيمكن ان يتحمله داود وحده .

هكذا قالت لى العمة عائشة ، ولكن هل اقتنع بهذا القول ؟ فقلت :

ـ ألم يعمل داود مثلى فى الحقول طول النهار ؟

ـ ما هذا الكلام يا بنى ؟ ان ابنى داود قد تعود ذلك منذ صغره . اما انت فمن الافضل ان تنال قسطا من الراحة .

كانت العمة عائشة لا ترى اننى استطيع اقناعها ، فما العمل ؟ لم اجد بدا من ان اجلس على الشرفة اصغى بصمت الى صرير الدلوين وهو يبتعد مع خطوات داود الخفيفة . ولم تمض الا برهة وجيزة حتى عاد الى مسمعى صريرهما مرة اخرى ، فوجهت نظرى الى باب الدار فى حيرة ، واذا بوجه داود مر مرورا خاطفا امام فتحة الباب المووروب وهو يومئ الى بالخروج ، فأسرعت الى الباب حائرا ووجدت داود قد ابتعد ، ثم التفت الى وهز رأسه يوعز لى باللحاق به ، ثم واصل سيره مسرعا الى خارج القرية .

لم ادركه الا عند مدخل القرية . فأنزل عن كتفه عصا الحمل ، ووضعه على كتفى وهو يقول لى بخشونة :

ـ ألم تصر على حمل الماء ! اذهب الآن الى الينبوع وارجع بالماء الى هنا ، وانا فى انتظارك .

وقفت ذاهلا . أليس هذه اهانة واضحة ؟ أتظننى لا اعرف من غير معاملتك الخشنة هذه ان من واجبى المشاركة فى نقل الماء ما دمت اتناول الطعام الجاهز فى بيتك ؟ ثار الغضب فى نفسى ، وفكرت فى حياتى المستقبلية ، فداخلنى شعور خفى

بأننى لا استطيع ان اعيش فى مثل هذه الاسرة . صحيح ان العمة عائشة طيبة القلب ، لكن كيف أستطيع ان اتحمل هذه الازعاجات التى يسببها لى داود بين حين وآخر ودونما سبب ؟ وبدا لى ان من الضرورى ان اطلب من رئيس الفرقة ان ينقلنى الى اسرة اخرى قبل ان يستفحل الامر .. لكن هذه الفكرة مرت بخاطرى مرورا خاطفا ، وسرعان ما تمالكت غضبى وحملت الدلوين متجها الى خارج القرية .

كان خارج القرية خلف الكهريز القديم كثير من الينابيع الصغيرة تنبثق منها المياه هادئة ، ثم تتجمع لتمر تحت الجسر الخشبى ، وتنصب فى البركة القريبة التى تبدو كأنها عين زرقاء ، تحدق الى السماء الزرقاء الصافية فى هدوء . وفى منعطف قريب من الجسر الخشبى ينبوع ارتوازى كبير ، هو الينبوع الوحيد الذى ينهل منه اهل القرية المياه . ولوقوعه خلف الكهريز القديم لا يراه القادم من القرية . كنت امشى نحو الينبوع غارقا فى غيظ مكبوت . ولما وصلت اليه ذهلت لرؤيتى خالدة تنحنى لتسحب الماء . كانت صورتها المنعكسة على صفحة المياه تتراقص طربا مع المياه المتدفقة . ثم انتصبت بقامتها واقفة تتأمل صورتها المنعكسة فى الماء ، وبدت كأنها منتشية بهذا المنظر الرائع . فقد ظلت مائلة برأسها تتأمل فترة طويلة ، وبيدها عصا الحمل . ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة رضى . وانحنت مرة ثانية ووضعت العصا على كتفها تهم بالانصراف .

حينئذ احسست ان الغم الذى اجتمع فى صدرى انقشع

فجأة . ولكن ابت كرامتي ان تراني في هذه الحيرة المخجلة ، فتصنعت كحة ، واقبلت عليها متظاهرا بالهدوء . رفعت خالدة رأسها في حذر ، ولما رأتني ابتسمت ابتسامة حلوة ، وانزلت عن كتفها عصا الحمل قائلة :

— انت ايضا تأتي لحمل الماء ؟

— أترين في ذلك غرابة ؟

— لا ، انما اقصد . . أقصد كيف هان على داود ان يترك ضيفه يحمل الماء ؟

لا ادري كيف خطر ببالي ان اكذب ، فقلت :

— لا ، لا تسيئي الظن فيه ، انما انا الذي اصررت على ذلك .

— صحيح ؟

هززت رأسي بجهد وقلت :

— عندما رأيتك تذهبين الى الينبوع انتزعت منه عصا الحمل .

رأيت بوضوح حمرة تعلو وجنتيها فجأة ، فأسرعت تغطي وجهها بيديها اول الامر ، ثم طأطأت رأسها مضطربة ، وحملت الدلوين وانصرفت مسرعة . مكثت واقفا منكسر الخاطر ، اتابعها بنظراتي الى ان اختفت خلف الكهريز القديم ، وتنهدت تنهدا خفيفا ، وندمت على جملتي الاخيرة التي لا تخلو من جرأة . . .

اخيرا سحبت دلوين من الماء وانا خائر القوة ، ثم حملتهما عائدا اترنح . ولم اشعر الا هذا الوقت بأن التعب قد بلغ مني كل مبلغ . وبدا لي كأن اطرافي قد تخدرت وان كفي ممسكتان بجمرتين

تحرقاننى . والحقيقة ان الكهريز القديم لا يبعد كثيرا عن مدخل القرية ، الا اننى شعرت كأننى قد تجشمت سفرا طويلا وقطعت مسيرة شاقة ، ثم وصلت اخيرا مدخل القرية بعد جهد جهيد .

فجأة قفز داود الى الطريق من بين اشجار الحور الابيض ينظر الى مزهوا ، وهو يصيح بصوت عال :

ــ كيف الحال يا فارسنا الشجاع ؟

ترى ، ما الذى يدعوه الى هذا الفرح ؟ فقلت :

ــ ماذا تقصد ؟

نظر الى نظرة ماكرة وقال :

ــ اقصد انك قد اسرت قلبها . أليس كذلك ؟

يا للخيبة ! فهززت رأسى بالنفى متأسفا . فقال :

ــ لا ، هذا ليس صحيحا . ضع الدلوين وقل لى ما الذى حدث!

سرعان ما انتزع منى عصا الحمل ووضعه على الارض .

يا له من رجل مزعج ! فأوجزت له بانزعاج ما جرى قبل قليل . لكنه ما ان سمع حتى التمعت عيناه فرحا وسرورا ، وضرب كتفى بكفه ضربة قوية وهو يقول :

ــ آه ، فهمت الآن لماذا كانت مستغرقة فى فرحها وتبسمها فلم ترنى عند دخول القرية . هذا يبشر بالخير ، والا فلو حدث هذا لى انا او لأى فتى آخر من فتيان القرية لانهالت عليه بالشتم دون شك . ها ، ها ، يبدو ان حيلتى هذه كانت نافعة وناجحة . لكن للاسف الشديد تأخرت اياما . والآن قد تم الامر ، وسأترككما تلتقيان كل يوم عصرا عند الينبوع . ها ، ها ، ...

آه ، كان هذا قصده اذن . لكن كيف اسأت فهم نواياه الطيبة هذه الاساءة ؟ تحسست كتفى التى آلمتها ضربته ، وداخلنى شعور قوى بالندم ، ادركت ان وجنتى احمرتا خجلا . غير ان داود لم ينتبه الى ملامح وجهى ، بل ظل غارقا فى فرحه وسروره. . .

ولما وصلنا البيت كانت العمة عائشة قد وضعت الشعرية فى القدر ولم تجد الماء لتبريدها فبدأت تتخبط جزعا فى المطبخ . ولما رأتنا قالت :

– لم هذا التأخر كأنكما عدتما من مكة ؟ بسرعة فقد كادت الشعرية تصبح حساء .

غمزنى داود غمزة ماكرة وقال لأمه :

– صحيح يا اماه ، فقد جلبنا هذا الحمل من الماء من مكة حقا .

اما العمة عائشة فانهمكت فى عملها وهى تثرثر لائمة ابنها :

– آه ، لو عاد هذا العفريت بالماء ابكر بقليل لكانت الشعرية التى صنعتها بيدى دقيقة كالشعر لذيذة الطعم . والآن انظر يا بنى . . لا تسخر من اسلوبى فى الطهى . على كل حال الذنب ذنبى ، فلماذا وضعت الشعرية فى القدر فى وقت مبكر . . .

اما داود فغمزنى غمزة مضحكة . . .

— ٤ —

وفى عصر اليوم التالى حمل داود الدلوين ، ونظر الى نظرة

ذات مغزى وقال مبتسما :

– هيا بنا يا صديقى لنحمل الماء !

ربما صادف كلامه هوى فى قلبى ، فبدت لى نظرته اليوم لطيفة وابتسامته محبوبة . لكن عمتى العزيزة عائشة ما ان سمعت كلامه حتى عاتبته قائلة :

– ألا تستحى ؟ كيف هان عليك ان تدعو الضيف الى حمل الماء ؟

– اطمئنى يا اماه ، لن اتركه يقترب من الدلو ابدا . لا تلومينى ! فالذنب فى انه صديقى العزيز ، وانا اريد فقط ان اتكلم معه فى الطريق .

لم اتوقع قط ان فتى يانعا مثله يملك هذه المهارة الرائعة فى محاورة امه . لكن انا الوحيد الذى يعرف ما قصده من كل هذا .

– انتما لا تفترقان كل يوم كالجسم وظله ، فمن اين جاء هذا الكلام الذى لا ينتهى ؟

– يا اماه . . .

كاد داود ان يتوسل فقالت العمة :

– حسنا . ولكن لا تؤخر عملى مرة اخرى . آه ، اظن انكما بهذا التلازم سوف تصبحان جسما واحدا .

. . . . . .

لما وصلنا مدخل القرية مسرورين رأيت خالدة تتجه نحو الكهريز القديم ، وكانت قامتها الهيفاء الجميلة تبرزها سحب الشفق الحمراء الارجوانية فتزيدها روعة وجمالا ، فبدت كأنها

وردة حمراء ممشوقة القوام . فأسرعت الى اخذ عصا الحمل من داود ، وانطلقت مسرعا الى الينبوع .

كانت خالدة قد وضعت الدلوين عند الينبوع بعد ان ملأتهما بالماء وبدأت تغسل وجهها بالمياه المتدفقة . ولما رأتنى مقبلا نحوها حاملا الدلوين ، رفعت وجهها تسيل منه قطرات ماء نقية متلألئة ، وابتسمت الى ابتسامة رقيقة ، وقالت بصوت عذب :

ـ اعرف انك ستأتى بكل تأكيد .

ما اعز هذه الجملة على ! ما زلت اذكر حتى الآن كلما اغمض عينى هذه الابتسامة الرقيقة وهذا الصوت العذب . فوضعت الدلوين فى الحال ، وجلست امامها على المرجة الخضراء . كان كل شيء حولنا هادئا ساكنا الا خرير مياه الينبوع التى تتدفق فى غبطة وسرور . وكانت مويجات متوالية تلامس بكل هدوء خيال خالدة الذى يهتز على صفحة المياه تحت سحب الشفق .

بدأ ضباب الغسق يسدل ستاره على رؤوس اشجار الصفصاف قرب البركة . واصدرت اول ضفدعة نقيقا فى البركة ، وسرعان ما تبعتها جميع الضفادع تغنى بكل حماسة انشودة الليل . آه ، ما اجمل الطبيعة ! واحسست فجأة اننى قد ادركت فى المنام منذ وقت طويل ان مثل هذه اللحظة السعيدة لا بد ان تأتى فى يوم من الايام ، لكن لما اقبلت على حقيقة واقعة شعرت بأنها جاءت سريعة مفاجئة لا ادرى معها ماذا افعل . اكتفيت بأن اتأمل عينيها الساجيتين صامتا : فرأيت فيهما قلبا يخفق بالحب ، ورأيت فيهما املى وسعادتى .. لكننى ظللت اتأمل فقط دون ان

افوه بأى كلمة .. ولعل اى كلام فى هذه اللحظة السعيدة قد يكون حشوا لا فائدة منه .

اخيرا بادرت خالدة الى اختراق السكون وكانت ابتسامة حلوة لا تزال ترتسم على شفتيها وحمرة وردية لا تزال تعلو وجنتيها وعيناها السوداوان الواسعتان تطرفان وقالت :

— هل تأتى لحمل الماء كل يوم ؟

وراحت تترقب جوابى بكل شوق .

فهززت رأسى بجهد قائلا :

— نعم ، سآتى ، سآتى بالتأكيد . كم اتمنى ان اجلس معك فى هذا المكان كل يوم !

نعم ، سآتى طبعا . ففى هذا المكان الجميل اجد مياه ينبوع صافية وسحب شفق جميلة ، واجد ايضا خالدة العزيزة وعينيها اللتين تفيضان حبا . لا بد ان آتى . . .

اما خالدة فطأطأت رأسها خجلا ، لكنها ابتسمت . . .

— ها ، ها ، هل تختبئان لاستطلاع الاسرار فى اعماق الينبوع ؟

بغتنا حينئذ صوت امرأة شابة جميلة تقبل علينا من الكهريز القديم . فاضطربت خالدة فى الحال ، وقالت لى بصوت خافت :

— حان لى ان انصرف .

ثم اتجهت نحو دلويها لتحملهما ، والتفتت للمرأة قائلة :

— استطلاع الاسرار ؟ ألست انت يا اختى كوليان خبيرة به ! اما انا فلا اعرف ان كانت اسرار فى اعماق الينبوع . ولكن

اذا استطعت استطلاعها فلا تنسى ان تخبريني .

لم تكد تنهى كلمتها حتى خفت بخطاها الى الكهريز القديم وانا حائر كمن افتقد شيئا اشيعها بنظراتي وهي تبتعد تدريجيا . . .

في اليومين التاليين كنت ارى تلك المرأة الشابة فقط دون ان اجد لخالدة المليحة الهيفاء اى اثر . فساورتني ظنون محزنة ، والتمست اعذارا تعزيني واصبحت كلما بزغ الفجر اترقب بجزع وشوق حلول العصر . لقد بدا لي النهار طويلا لا ينتهي ، حتى اذا اقبل العصر لا ينتظرني هناك الا الخيبة واليأس . فلم يبق لي الا ان اجلس على تلك المرجة الخضراء حائرا منفردا حينا من الوقت ، ثم اودع ذلك الينبوع وتلك المرجة كأني اودع من يعز على فراقه . . .

وفي عصر اليوم الثالث وصلت الى الينبوع قبل الموعد ، فلم اجد خالدة ايضا . فسحبت دلوين من الماء ووضعتهما على حافة الينبوع ، ثم جلست على المرجة اتأمل المياه المتدفقة ذاهلا غارقا في التفكير . وفجأة ترامى الى صوت امرأة :

— آه ، صحيح ما يقولون !

رفعت رأسي حائرا فرأيت امرأة تناهز الخمسين ، تنزل من الكهريز القديم . لم ار هذه المرأة قط منذ مجيئي الى القرية . لكنني سرعان ما تبينت من عصا الحمل والدلوين انها هي العمة بوشاهان ام خالدة التي سمعت عنها الكثير في هذه الايام . ورأيت وجهها مكفهرا وعينيها ترسلان نظرات فاترة غريبة . فأحسست ان مجيئها لا يبشر بالخير . ونهضت مسرعا الى الدلوين . لكنها اسرعت الى معترضة طريقي وقالت لي :

ـ من تنتظر هنا على حافة الينبوع يا احمق ؟

ـ انا .. انا لا انتظر احدا ، و.. وانما اجد هذا الينبوع ممتعا جدا ، وهو يتدفق بلا انقطاع . فمثل هذا الينبوع الجذاب لا نجده فى المدينة ابدا .. هل انت فى حاجة الى مساعدة لسحب الماء ؟ .. والا فأستأذنك ...

كنت فى غاية الاضطراب والذهول فلا ادرى ماذا قلت ، وحمات الدلوين اهم بالهروب ، لكنها اوقفتنى صائحة :

ـ قف !

ثم قالت وهى تصر على اسنانها حنقا وتحدجنى بنظرة شرسة :

ـ اسمع يا احمق ! اياك ان تعود الى اغراء ابنتى فيما بعد ! ألا تعلم انها لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها . وحتى اذا كان لا بد من تزويجها فى يوم من الايام ، فان ازوجها من فتى متشرد مثلك . أتعتقد انك شاب مثقف فيأخذك الغرور ؟ انك لا تملك ولو كوخا تلجأ اليه ، فكيف بلغت بك الجرأة الى الطمع فى الزواج من ابنتى ؟ هذا مستحيل ! اطرد من ذهنك احلام العلجوم الذى يتمنى ان يأكل لحم البجع . ان ابنتى لا بد ان تتزوج من احد الموظفين او العمال فى المدينة واذا لم تستطع ذلك ، فخير لها ان تبقى فى البيت بدلا من زواجها منك انت ...

فى هذا الوقت اقبلت علينا تلك المرأة الشابة مبتسمة ، فصاحت بى العمة بوشاهان وهى تشير بسبابتها الى انفى :

ـ ابتعد ! ابتعد عني بسرعة ! .. ما هذه الثرثارة الطويلة اللسان ؟ ...

ولم تكد تنهي كلمتها حتى بدأت تسحب الماء دون ان تلتفت الى تلك المرأة الشابة التى تقبل عليها مبتسمة .

اتضح لى كل شيء . ولكن ماذا استطيع ان اقول امام هذه المرأة المتعجرفة ؟ فاكتفيت بالقاء نظرة حانقة على تلك المرأة الشابة التى لا تحمل اى هم وغم . وحملت الدلوين وصعدت الكهريز القديم وانا فى غاية الحرج والضيق . لكن صدرى لا يزال يغتلى مغتاظا : من يعش رجبا ير عجبا يا عمة بوشاهان ! فسوف اجعلك تأتين الى لطلبى فى يوم من الايام وانت تنادينني : يا بنى العزيز تورشون !

بعد يومين التقيت خالدة مصادفة فى طريقى الى مخزن الفيلق الانتاجى . فلم اخبرها بخشونة امها وتعسفها حتى لا ازعجها ، بل اكتفيت بأن سألتها فى حنان لماذا لم تأت الى الينبوع هذه الايام ، فاحمرت وجنتاها فجأة ، واطرقت مفكرة مليا ، ثم حركت شفتيها متلعثمة :

— عفوا .. عندى .. عندى بعض الشغل ...

ثم خطت بجهد مبتعدة عني فى تباطؤ ، فناديتها مرتين فى ألم لكنها لم تلتفت الى ...

لم اعد اراها تتجه الى الينبوع منذ ذلك الوقت . اذ كانت تقضى نهارها مختبئة فى مزرعة الدواجن ، وتبقى مساء حبيسة البيت . واتفق ان تلاقينا فى الطريق عدة مرات . ولكنها كانت تتجنبنى باستمرار . فبدأت احقد عليها ، وعقدت عزمى على ان اتجاهلها . بل كنت اشتمها فى نفسى فى بعض الاحيان : " يسمونك

' الدجاجة الصغيرة ' ، هذا سهل ، اما انا فأسميك ' الدجاجة العجوز ' . " لكن الناس فى مثل هذه القرية الصغيرة لا بد ان يلتقوا شاءوا ام لم يشاءوا ، فكنت وخالدة نتلاقى مصادفة . وكلما التقيت بها حاولت جهدى ان اكبح عواطفى فلا انظر اليها ، اما هى فكانت تمر بجانبى صامتة مطأطئة الرأس شاحبة الوجه . وذات مرة تصادفنا على الجسر الخشبى قرب البركة ، لكن راح كل منا الى حال سبيله ، وكادت اكتافنا تلامس بعضها بعضا . وبعد ان عبرت الجسر لم اتمالك ان التفت الى الخلف لأسترق منها نظرة ، ففوجئت بها تتوقف ايضا عند الطرف الآخر وتتأملنى صامتة . كان واضحا انها لم تتوقع منى ان التفت اليها فى هذا الوقت ، فاضطربت غاية الاضطراب ، واشاحت عنى وجهها وسرعان ما اختفت بين اشجار الصفصاف . . .

— ٥ —

مر الزمن سريعا كالسهام . فقد مضت على ذلك خمس سنوات ومضى على فراقى الريف ما يقرب من ثلاث سنوات . واصبحت الآن على وشك التخرج فى الجامعة . وها أنذا اعود اليوم بعد الظهر على عجل الى بلدى الثانى الذى سبق لى ان عشت فيه منتهزا فرصة العودة من مسقط رأسى الى الجامعة فى العطلة الصيفية . لا استطيع ان اصف مدى فرح عمتى العزيزة عائشة عندما رأتنى . لكنها ما ان سمعت انى سأسافر الى المدينة فى

صباح اليوم الثانى حتى داخلها الحزن ، وألحت على ان ابقى اياما اخرى . غير ان العطلة على وشك الانتهاء وبقائى هنا يوما آخر يعنى التأخر . فاستعنت بداود ، ولم يخطر ببالى ان يقف بجانب امه حازما هذه المرة . وبدا لى ان المشكلة ازدادت تعقيدا . كيف استطيع ان ارفض هذه الحفاوة البالغة ، ثم هذه اول مرة ارجع فيها اليهم بعد فراقى اياهم . وفجأة التمعت فى ذهنى حيلة داود المألوفة ، فتوسلت متدللا الى عمتى العزيزة راجيا ان تسمح لى بالعودة الى المدينة فى اليوم الثانى ، واقسمت لها على ان ازورها كل سنة فيما بعد . ادركت الآن مدى حنان الام وطيبة قلبها ، فقد تنازلت العمة عن الحاحها امام توسلاتى . ثم بدأ كل منا ونحن نجلس حول المائدة يتحدث عن طرائفه المختلفة .

تشعب الحديث وتطرق دون ان اتوقع الى خالدة . لعل ذلك يعود الى العمة عائشة اذ ذكرت بفرح اننا — انا وداود — خرجنا ذات مرة لحمل الماء ولم نرجع الا بعد وقت طويل حتى لم تجد ماء لتبريد الشعرية التى كادت تصبح حساء . على كل حال ، لا اذكر لذلك الحديث سببا محددا . ولكن ما ان ذكر اسم خالدة حتى علت وجنتى حرارة لا ادرى أهى حرارة خجل ام حرارة مقت . وهممت عدة مرات ان اجذب الحديث عنها الى موضوع آخر جذبا خفيا ، الا ان صوتا ملحا صرخ فى اعماق قلبى فجأة : " لا تقاطع الحديث ! انى فى اشد شوق الى معرفة مصيرها الآن ! " واحسست بمويجات سعيدة تتهادى الى اعماق قلبى . . .

— اما هى فلا تزال فى الخامسة عشرة من عمرها !

بهذه اللهجة الساخرة بدأ داود كعادته حديثه عن خالدة ، ثم استطرد قائلا :

ـ هكذا قالت عمتنا بوشاهان . وكلما قابلت احدا لا تنسى ان تقول له هذا القول الشهير : ان ابنتى خالدة لا تزال فى ربيعها الخامس عشر . لكن اترابها قد تزوجن واحدة تلو الاخرى وصارت بعضهن فى عداد الامهات ، ألا تجد ذلك غريبا ؟ . . .

لم ينتبه داود قط الى امه التى لزمت الصمت واكفهر وجهها ، بل ظل يقص على قصة خالدة فى هذه السنوات بلهجته الساخرة وفى حماسة بالغة . وانا اعرف حق المعرفة انه لم يرد بهذه السخرية اللاذعة الا ان يشفي غليلي . غير انه داخلنى شعور مسبق غامض يدفعنى الى تأمل العمة عائشة المكفهرة الوجه تارة وتأمل داود الشديد الحماسة فى حديثه تارة اخرى ، وانا فى قلق شديد وفكر مشوش .

ـ يا بنى ! الفتاة هى الضعيفة دائما . لا تكن قاسيا الى هذا الحد !

اخيرا قاطعت العمة كلام ابنها بلهجة قاسية . هذه اول مرة أرى فيها العمة الطيبة القلب بهذه القسوة . فكف داود عن حديثه مبهوتا . اما العمة عائشة فصمتت برهة ، ثم قالت لى بعد ان اصلحت خمارها وقد عاد الارتياح الى وجهها تدريجيا :

ـ يا بنى ، كانت نظرتى الى الفتاة خالدة اسوأ من نظرة اى شخص آخر . لكن تغيرت نظرتى هذه تغيرا كاملا منذ ذلك اليوم . وما زلت حتى الآن اندم على ما بدا منى من سوء ظن فيها . . .

توقفت العمة مرة اخرى ، وتبادلنا انا وداود نظرات التساؤل . ولاحظت ان العمة تحاول جاهدة كبح العواطف التى تجيش فى اعماق قلبها . فساد المائدة سكون قصير ، وبعد برهة تابعت كلامها بصوت عميق :

ـ هذا ما حدث فى مساء ذلك اليوم الذى غادرت فيه قريتنا للالتحاق بالجامعة (خريف تلك السنة) . كان داود قد خرج بعد العشاء الى ناصية الشارع يصغى الى اهل القرية يتجاذبون اطراف الحديث ، ولم يكن فى البيت احد غيرى . وبينما كنت اجلس على الشرفة ابترد فى الهواء المنعش اذا بشبح لاح عند مدخل البيت . كان مصباح بيتنا كما تعلم على حافة النافذة كعادته ، لا يمتد ضوؤه الا الى ما تحت عريشة العنب ، اما مدخل البيت فلا يزال معتما ، وكنت اجلس فى المكان المضيء فلم استطع تبين ملامح القادم لأول وهلة ، فقلت : " من انت ؟ تفضل بالدخول " . لكن القادم ظل واقفا صامتا ، فتحيرت من امره ، ونهضت اتقدم نحوه فأجاب بخجل فى الظلام : " انا ، يا عمتى ! " فعرفت من الصوت انها فتاة ، الا اننى لم اتبين من هى . وعندما اقتربت منها اذا بها خالدة . فدعوتها للجلوس فى البيت ، لكنها اعتذرت . آه ، يا لها من فتاة مسكينة . . انى اعرف انها فتاة قلما تخرج لزيارة الجيران وانها لا تأتينى الا لأمر هام ، فسألتها : " يا بنيتى ، هل امك فى حاجة الى ؟ " هزت رأسها نفيا وصمتت برهة ، ثم فغرت فاها بجهد وقالت متلعثمة : " يا عمتى . . تورشون . . انا . . انا جئت لأودعه . . . " فقلت : " يا بنيتى العزيزة ،

انه قد سافر الى المدينة بعد ظهر اليوم . " لكنها ما ان سمعت كلامى حتى بهتت ثم ارتمت على وعانقتنى بذراعيها واخذ تنشج ، وسرعان ما بللت دموعها الحارة كتفى . وبعد لحظة دفعتنى فجأة وخرجت مهرولة حتى اختفت خارج المدخل المظلم . . . يا لها من فتاة مسكينة ! ومنذ ذلك الوقت لم تسمح لها امها بالذهاب الى الينبوع ، بل تكلفت هى نفسها حمل الماء برغم تقدمها فى السن . . .

كل الذكريات لا بد ان تصير باهتة مع مرور الزمن ، كذلك كانت الذكريات التى تركتها خالدة فى ذهنى . لكن ما ان قصت على العمة عائشة قصة خالدة المؤثرة حتى ثار فى نفسى الحنين اليها . وتخيلت قامتها الرشيقة الهيفاء وابتسامتها الحلوة الخجلة ، بل تخيلت بوضوح قطرات دموعها التى ذرفتها على كتف العمة وطيفها الذى يختفى خارج المدخل المظلم وهى تبكى . . فتحرقت شوقا الى لقائها فى الحال . لكن من الاسف الشديد انها ذهبت فى ذلك اليوم الى مركز المحافظة لشراء لقاح الوقاية من طاعون الدجاج .

عند العصر ذهبت خصيصا مع داود الى الينبوع لحمل الماء . فبدا لى كل شىء عند الينبوع كما كان . مياهه ما تزال تتدفق فى سرور وغبطة ، وتلك المرجة الخضراء الشبيهة ببساط سندسى ما تزال تزين الينبوع فتزيده جمالا ، والبركة القريبة من الجسر الخشبى ما تزال كما كانت تعكس مياهها الزرقاء قبة السماء العميقة التى لا يسبر لها قرار . الا تلك الاجمة من شجيرات

الصفصاف ، فقد نمت واصبحت متشابكة الاغصان وارفة الاوراق تبدو كأنها حاجز عظيم اخضر ينتصب على شاطئ البركة المقابل . لكنى لا ارى فى هذا الوقت شبح خالدة يلوح ويختفى . فسحبت مع داود دلوين من الماء ووضعناهما بجانب الينبوع ثم جلسنا على المرجة ، تنتابنى موجات من الكآبة والحزن فى اعماق قلبى ، وانا اجول ببصرى فى كل ما حولى . . .

وبينما انا كذلك ابصرت امرأة عجوزا هزيلة حدباء تنزل من الكهريز القديم حاملة الدلوين ، فعرفتها فورا . سحبت المرأة العجوز دلوى الماء بصعوبة ، ثم نهضت تاهث لهاثا شديدا وهى تحمل بين ذراعيها عصا الحمل . ثم وقعت على نظرتها الباهتة الفاترة ، فقالت بصوت مبحوح يزيده بحة ازيز اللهاث المتقطع :

ــ يا داود ، من الذى بجانبك ؟

لكنها عرفتنى فى الحال ، وقالت لى قبل ان يجيبها داود :

ــ آه ، ألست تورشون ؟ متى رجعت الى هنا يا بنى ؟ لعلك تخرجت فى الجامعة ؟ لم تتخرج ؟ لكنك على كل حال لم تكن من الذين ينكرون الجميل ، ولم تنس اهل القرية . لكنك فارقتنا خفية فى خريف ذلك العام دون ان تودعنا . والآن ، وقد رجعت ، لا بد ان تنزل فى بيتى ضيفا . ليس معقولا ان تذكر عمتك عائشة فقط وتعتبرنا نحن غرباء ! أسمعت يا داود ؟ لا بد ان تأتى بصديقك الى بيتنا . . .

لا استطيع ان ابين شعورى فى ذلك الوقت ، فقد اختفى كل ما كان يجيش فى صدرى من حنين الى خالدة ، وحل

محله ما لا استطيع ان اصفه من قسوة وسخرية ، حتى تمنيت ان ارى كيف صارت ابنتها التى لا تزال فى ربيعها الخامس عشر ، لكن ذلك اصبح مستحيلا ، اذ اننى لا بد ان اسافر فى الصباح الباكر ...

— ٦ —

والآن قد تزوجت واصبحت لى عائلة . لكننى لا ازال اذكر لزوجتى بين حين وآخر بلدى الثانى الذى عشت فيه ، وعمتى عائشة الطيبة الحنون . نعم اننى قد اقسمت فى ذلك العام على ان ازورها سنويا ، الا اننى لم اتوقع ان العمل والحياة سيقيدانني كحبلين ، فلا استطيع حراكا . جاءنى قبل ايام خطاب من داود صديقى القديم قال فيه انه تزوج ايضا ، وان العمة عائشة اصبحت جدة . فأحسست بأننى اذا تأخرت عن زيارتهم اكثر من ذلك ، فلن يقبل ، ولن يرضى بهذا ضميرى . ومن حسن الحظ ان تمت بسهولة الموافقة على طلبنا انا وزوجتى للحصول على اجازة لزيارة الاهل قبل الموعد . فبدأنا رحلتنا من مدينة اورومتشى البعيدة الى بلدى الذى طالما تمنينا زيارته .

عندما نزلنا من الباص عند مدخل القرية لم اتمالك ان تعجبت لما طرأ عليها من تغيرات هائلة . لكننى ظللت ابحث باصرار عن تلك الآثار التى ألفتها منذ سنوات . أليس بين اشجار الحور الابيض الكثيفة التي تزدحم على جانبى الطريق والتى تمد رؤوسها

الى عنان السماء ، اشجار غرستها بنفسى ، وها هى ذى الآن كلما لامستها نسمة خفيفة ، حفت اوراقها حفيفا عذبا كأنها تتهامس برقة لترحب بى انا صديقها الحميم بعد فراق طويل ، وهذه الحقول الواسعة المترامية الاطراف قد فتحت ذراعيها الآن كأنها تود ان تشدنى بقوة الى صدرها الواسع الاخضر لتقبلنى تقبيلا حارا ، ومن مكان غير بعيد انبعث تغريد قبرة فى احدى حدائق البيوت على نحو جذاب ، وخارج القرية يصدح وقواق فوق الحقول صداحا متقطعا ...

تنشقت انفاسا عميقة من هواء الريف المنعش ، ثم مشيت بزوجتى الى داخل القرية . كانت على جانبى الشارع الوارف الظلال دور متباعدة هادئة ، يجتمع الناس امام بعض بواباتها مثنى وثلاث يتجاذبون اطراف الحديث . لما رأونا دهشوا ، وراحوا يتفرسوننا . كان طبيعيا ان ابدو امامهم غريبا اذ مضى على فراقى اياهم سنون طويلة . لكن الاهل الاعزاء — وانا اشكرهم — لم ينسونى ، فسرعان ما عرفونى . وتقدموا الينا تباعا يدعوننا الى زيارة بيوتهم . لكنى كنت مصرا على لقاء عمتى العزيزة اولا ، فتنازلوا عن الحاحهم على ان ازورهم قبل السفر مهما كان الامر .

كنا نمشى حينا ، ونتوقف حينا آخر ، فمضى علينا وقت طويل منذ دخلنا القرية . وتأثرت زوجتى غاية التأثر ، وقالت لى انها لم تتوقع قط ان الاهالى فى مثل هذه القرية المنعزلة النائية سيستقبلون بهذه المودة والحرارة شابا غريبا لم يعش بينهم الا بضع سنوات . والحقيقة اننى تأثرت ايضا بهذه الحفاوة البالغة ، وشعرت

بأننى لا استطيع ان اجد لها تفسيرا مقنعا فى وقت وجيز ، فلم اقل لها شيئا بل انهمكت فى الرد على تحيات الاهالى الحارة .

وعن بعد لاح امامى مفترق الشوارع الذى اعرفه حق المعرفة حيث كنا — انا وداود — نجلس فترة من الزمن كل يوم بعد العشاء . ورأيت جماعة من الفتيات يتحلقن عند المفترق ، تترامى منهن ضحكات رنانة متقطعة . ولما اقتربنا منهن كففن عن الضحك ، ورحن يتفرسننا باستغراب ، وبدا لى انه لم يكن بينهن من تعرفنى ، وهذا ليس غريبا فان الفتيات اللائى تعرفت عليهن قبل سنوات لا بد ان يكن قد تزوجن . لكن حين مررنا بجانبهن ترامى الى صوت يصيح بتأثر بالغ :

— تورشون !

توقفنا انا وزوجتى فى دهشة ، وعدت اتفرس فى وجوه هؤلاء الفتيات ، فلم اجد منها وجها مألوفا ايضا . فاستغربت ، أيكون بينهن من يعرفنى ، ام اخطأت السمع ؟ ولكن هل اخطأت زوجتى السمع ايضا ؟

— هذا انت حقا . أهلا بك !

حينئذ خرجت من بين الفتيات امرأة هزيلة تلبس فستانا زاهى الالوان يبدو فى قوامها النحيل كأنه معلق على علاقة ثياب . ووجهها مسود اللون مترهل العضلات ، تنتظم زوايا عينيها وفمها تجاعيد متشابكة ، فتبدو امام الناظر اليها انها ام كثيرة الاولاد . فذهلت انا وزوجتى كل الذهول ، وتبادلنا نظرات التساؤل ، وتعجبت كيف لم اكتشف قبل قليل هذه المرأة التى اندست بين هؤلاء

الفتيات . حاولت جهدى ان افتش بين ذكرياتى القديمة عن اى اثر لها لكن خانتنى الذاكرة .

ـ عجبا ، ألا تعرفنى ؟

تبا لذاكرتى الملعونة ! انها لا تزال تذكرك جيدا ، لكنك تركتها فى غياهب النسيان . يا له من امر محرج ! فلم اجد بدا من ان اسألها وليكن ما يكون :

ـ اسف جدا ، وحضرتك انت . . .

ـ انا . . ألست انا خالدة ؟

يا الهى ! أهى خالدة ؟ سرت فى جسدى فجأة هزة عنيفة ، ولم اتمالك ان هززت رأسى هزا خفيفا ، وانا اكاد لا اصدق عينى . أكانت قوانين الطبيعة قاسية الى هذا الحد ؟ فلم تبق منها الا هذا الغصن اليابس الذاوى بعد ان كانت وردة حمراء زاهية الالوان طيبة الرائحة . . .

وسألتنى خالدة :

ـ وهذه . . أهلا بك .

لقد بدت كأنها تذكرت شيئا فجأة فابتسمت الى زوجتى ابتسامة اسف ، ولاحت على وجهها المشرق بالابتسام غلالة رقيقة من تجاعيد تعلوها حمرة شاحبة .

ـ هذه زوجتى .

ـ اوه ، يسرنى ان اتعرف عليك ، اتمنى لك من صميم قلبى دوام السعادة . . .

ثم لزمت الصمت ، وهى ترنو الى بنظرة ملؤها الحزن والكآبة ،

ثم طأطأت رأسها . وبعد برهة رفعت رأسها فجأة محركة شفتيها كأنها تود ان تقول شيئا ، الا ان عينيها قد اغرورقتا بالدموع ، فعضت على شفتها السفلى واستدارت على عقبيها على عجل ، وانصرفت مسرعة . ولم تخط الا خطوات حتى اهتز كتفاها اهتزازا شديدا ، ثم بدأت تجرى جريانا سريعا مخلفة خلفها نشيجا حادا يمزق نياط القلوب . وما هى الا لحظة حتى اختفت فى منعطف الشارع المقابل . . .

فتنهدت الفتيات تنهدا خفيفا :

ـ يا لها من فتاة مسكينة . . .

ظللت واقفا بلا حراك اشيع شبحها الهزيل بنظرات صامتة ، لكن الطيف الذى يتمايل امام ناظرى لم يكن الا ذلك الطيف الجميل الذى انساب كنسمة خفيفة الى اجمة شجيرات الصفصاف الهادئة تارة ، وتلاشى بسرعة فى سحب الشفق الحمراء التى تصبغ الكهريز القديم تارة اخرى ، وخف بخطوات رشيقة يعبر الجسر الخشبى قرب البركة طورا ، واختفى باكيا خاف ستار الليل الحالك طورا آخر . . يا خالدة بنت الخامسة عشرة ! كم من مرة شيعت طيفك الجميل الجذاب بنظرات صامتة ، وفى صدرى يجيش الفرح والسرور حينا والخيبة والحزن حينا آخر وكذلك الغضب والحقد فى احيان اخرى ، لكن لم اتوقع قط ان اراك فى هذه الحال . . .

ـ ماذا اصابك ؟

لعل زوجتي لاحظت وجهي قد اكفهر ، فجذبت طرف

كمى تسألنى فى حذر :

– ماذا بك ؟ من هى ؟

اجبتها :

– انها فتاة جميلة !

هززت رأسى هزا بطيئا ، وانا اتأمل نظرتها المتسائلة ، وقلت :

– سأخبرك بكل شىء .

ثم تنفست تنفسا عميقا ، ومشيت بزوجتى متجها الى بيت عمتى ...

حصان وحشى اعرج

بقلم : اقبال مجدى من قومية القازاق

لست من علماء التاريخ فى شيء ، ولم اقم بتحريات دقيقة للنوادر التى قيلت عن ابن السماء هذا الذى هز العالم فترة من الزمن بقوته وجبروته . فأرجو هنا من اولئك العلماء والخبراء المدققين ان يتكرموا بالعفو عن جرأتى . . .

ـ يا جماعة ، هل سمعتم ان تشو تشى خان * قد انتقل الى جوار ربه ؟

قال جندى عجوز من فريق عشرة الآلاف الكيبتشاكى ** متعمدا ان يجعل ذلك سرا مكتوما .

ـ أتهذى ام مساك شيء من الجنون يا نارمان ؟ حذار من تعجيل اجلك !

ـ لم اقل الا حقا ، فقد اخبرنى بذلك احد ابناء عمى

* تشو تشى خان : الابن الاكبر لجنكيزخان .

** كان جنكيزخان ينظم وحدات جيشه على النظام التالى : فريق عشرة الآلاف ، فريق الالف وفريق المائة . وفريق عشرة الآلاف الكيبتشاكي ، ويتألف من ابناء دولة كيبتشاك .

بنفسه وهو يعمل حارسا من حرسه .

– كيف ذلك ، وهو لا يزال فى عنفوان شبابه ؟ أ فاجأه مرض ؟

– لا ، لقد كسر عموده الفقرى الرجال الذين ارسلهم اليه خه خان * اذ انه لا يثق به . وكان تشو تشى خان يومئذ فى احدى رحلاته للصيد ، وكان قد اصاب حصانا وحشيا بسهم رماه ، غير ان الحصان ابى ان يقع فريسة سهلة فى يده ، فجرى مستميتا نحو منعطف النهر . وكان تشو تشى خان بطبيعته لا يرضى ان تفلت من يده هذه الفريسة الجريحة فطاردها بالحاح حتى خلف حرسه وراء ظهره بمسافة بعيدة الا بعض الرجال الذين ارسلهم خه خان ، فقد ظلوا يجرون خلفه . ولما لحق به الحرس عند منعطف النهر وجدوه قد سقط عن فرسه على الارض ، لا يستطيع ان يفوه بكلمة ، وكانت عيناه تحدقان الى السماء الزرقاء . . .

– يا له من وصف دقيق كأنك قد شاهدت كل ذلك بأم عينيك !

سكت الجندى العجوز وحدج ذاهلا ذلك الرجل الذى سخر منه ، ثم هب منصرفا من الخيمة وتلاشى فى ظلام الليل الحالك .

كان المغنى كربوكا مستلقيا على جنبه فى زاوية من الخيمة يستمع الى تلك الحادثة العجيبة صامتا ، لا يود ان يحشر نفسه فى الموضوع . لكنه عندما سمع كيف كان تشو تشى خان يحدق الى السماء الزرقاء عند احتضاره ثم مات دون ان يفوه بكلمة واحدة ،

---

* خه خان : جنكيزخان .

زفر زفرة طويلة ولم يتحمل البقاء مستلقيا ، بل نهض جالسا وشيع ذلك الجندى العجوز بنظراته الصامتة حتى اختفى خارج باب الخيمة . ثم تناول طنبوره وبدأ يصلح اوتاره . ولما ترامت اصوات الطنبور الى آذان هؤلاء الرجال الذين لا يزالون مستغرقين فى فرحهم وسرورهم بعد ان سخروا من الجندى العجوز ، توقفوا عن حديثهم وبدأوا يتأملون باستغراب هذا المغنى النامانى * الذى بدا اليوم غريبا فى تصرفاته على غير عادته . وبعد برهة تم اصلاح الاوتار فقال كربوكا بصوته البطيء الرزين :

– ايها الشيوخ والاخوان ، قد سبق لى كما تعلمون ان اقسمت على ان لا اعود الى الغناء والعزف تحت جبروت السلطان جنكيزخان ، لكن خبر انتقال تشو تشى خان الى جوار ربه جعلنى اليوم لا استطيع كبح رغبتى الملحة فى الغناء والعزف ، فاسمحوا لى يا اخوانى ان اخرج عن عادتى واغنى ملحمة من ملاحم اسلافنا البطولية . . .

ثم كف عن الكلام وجال بنظرة ترسل الى وجوه الحاضرين فى الخيمة ، وعيناه تلتمعان . فهزوا رؤوسهم موافقين . واذا بأصوات الغناء الخفيفة العميقة بدأت تتردد فى اجواء هذه الخيمة المربعة الضيقة مع انغام الطنبور القوية المجلجلة :

يا ايها المسكين البائس
افتح عينيك على فارس

---

* نامان : احدى قبائل القازاق .

انه ابنك آلبامس *

. . . . . .

تناهت اصوات الغناء والعزف يرفق الى خارج الخيمة ، فجذبت اليها الجيران . وسرعان ما ازدحمت الخيمة بمن هاجر مع فريق عشرة الآلاف الكيبتشاكى من الشيوخ والنساء والاطفال من قبائل اوسون وكانغ جيوى وآرقن وتورزش . كان معظم المحتشدين من ابناء قبيلة نامان ، وقد اندس بينهم بضعة عشر فارسا من فريق الالف النامانى . وكانت عيونهم المحترقة لا تغادر ولو لحظة واحدة هاتين اليدين اللتين تتلاعبان بالاوتار . وبدا كل واحد منهم فى غاية الفرح والتأثر ناسيا كل ما حوله ، كأنهم وجدوا فجأة نبعا حلوا يستطيعون ان ينجوا به من الهلاك بعد ان تجشموا مشقات السفر فى الصحراء المترامية ، وذاقوا عذاب الجوع والعطش . والحقيقة ان هذا المغنى الذائع الصيت قد اقسم على عدم العودة الى الغناء والعزف منذ وطئت اقدام خيالة جنكيزخان مروج كيبتشاك . فلم يعد فى امكان الناس ان يسمعوا غناءه الساحر الأخاذ وعزفه الرائع الجذاب علما انه ليس فى كنز الالحان القازاقية لحن الا اتقن عزفه وليس فى بحر الاغانى القازاقية اغنية الا اجاد غناءها ، فكلما تناول الطنبور بدا كل لحن من الحانه كأنه مياه غدير رقراقة تنساب فى القلوب ، او كأنه قطعان من الخيول المتراكضة

---

* آلبامس : ملحمة كلاسيكية قازاقية ظهرت بين القرن العاشر والحادى عشر ، وسميت باسم بطلها آلبامس .

تندفع بزخم عظيم ، فتأسر القلوب وتجذب النفوس . اما غناؤه فكان من الروعة والجمال بحيث لا يسمع الانسان اغنية منه حتى يمثل بها وينسى العودة . . . والآن يصغى الناس الى غنائه بكل جوارحهم صامتين مأخوذين ، فاستغرقوا كليا فى هذه الملحمة القديمة المؤثرة . ولم يبق الا اضواء قناديل زيت الغنم تتراقص هادئة صامتة .

. . . . . :
وكذلك لأبناء المنغول بطل عظيم الشأن
ذاع فى الدنيا اسمه كلمان
تحت امرته الف انسان
يسخرهم كجوار وغلمان
ومن كل عشر من السمان
يأخذ واحدة الى حيزه الملآن
ثم وقع فى هوى قوريباسين حيران
فود ضمها الى نسائه الحسان
. . . . . .

عزف كربوكا لحنا حماسيا مجلجلا وارتفع بصوته قليلا وعيناه تلتمعان فى ضوء مصباح الزيت الشاحب ، تلتمع فيهما نظرة حازمة وبريق ساحر . وبدا وجهه جامدا يكاد لا يعبر عن اى احساس ، غير ان يديه تتلاعبان بالاوتار الدقيقة بمهارة وتتراقصان

....

لا السيوف تصيب ألبامس ولا الرماح
اقسم انه سيقضى على العدو بقوة الكفاح
فلننهض قياما ونبسط اكفنا
ندعو له بمديد العمر ودوام الشباب

......"

بدأ الناس يمسحون الدموع ، وغص بعض الشيوخ بالبكاء ، حتى نشج فارسان ناماتيان من شدة التأثر . وعندما غنى كربوكا " فلننهض قياما ونبسط اكفنا " نهض الجميع فى وقت واحد وبسطوا اكفهم من غير سابق اتفاق . حتى كربوكا نفسه تأثر بالآخرين ، فنهض مع طنبوره واقفا يلامس وجهه ويدعو الله ان يحفظ لألبامس دوام الشباب كما يفعل الآخرون . فتوقفت مؤقتا اصوات الغناء وانغام الطنبور ، وبدا كل شيء خارج الخيمة هادئا ساكنا ...

فجأة انفتح باب الخيمة ، فوجه الجميع اليه ابصارهم فزعا وظنوا ان دورية ليلية من الجنود المنغول قد اقتحموا عليهم . فجعل كل واحد منهم ينتظر فى صمت مصيبة وشيكة الوقوع الا انهم لم يروا سوى شبحا تسلل الى داخل الخيمة ولما اتضحت ملامح وجه القادم فى ضوء المصباح الخافت تبين كربوكا انه هو ذلك

الجندى العجوز الذى انصرف غاضبا ، وكذلك عرفه الجنود النامانيون فتصايحوا فرحين مرحين بهذه المفاجأة :

– أليس هذا نارمان ؟ !

– بالله عليك يا اخى ما هذا المزاح ؟ حتى لقد سببت لنا فزعا لا داعى له ؟

– وما هذا الرعب والارتباك ، أحدث شىء مكروه ؟

قال نارمان بعد ان هدأ روعه :

– يا لها . . من مصيبة . . . .

بهرت انفاسه قبل ان يكمل كلامه ، فعاد الجو متوترا فجأة داخل الخيمة .

– قل ما الذى حدث ؟

– قل بسرعة !

لم يعد فى استطاعة بعض الناس المتعجلين ان يتمالكوا انفسهم ، اما نارمان فبدا هادئا وقال على عجل :

– ألم يكن تشو تشى خان قد اختفى . . .

الا ان صوتا قاطع كلامه قائلا :

– ألم تقل قبل قليل انه قد انتقل الى جوار ربه ؟

– هذا حق . ولكن من يجرؤ على ابلاغ خه خان بحقيقة الامر . فاضطروا الى ان يقولوا له ان تشو تشى خان اختفى فجأة ظنا منهم انه سيفهم الامر من هذا التلميح . ولم يخطر ببالهم ان خه خان ما ان يسمع هذا الكلام حتى ينفجر غاضبا ويأمر رعايا كيبتشاك بأن يرجعوه خلال ثلاثة ايام والا فسوف يستبيح

مروج كيبتشاك ويحولها الى حمامات دم ...

– اسمع يا نارمان ، متى انعم عليك خه خان فجعلك كاتبا له ؟

بادر صوت بين الناس بهذا السؤال فضجت الخيمة فى ضحكات عالية . وبدا نارمان فى غاية الحرج ، الا انه لم يعرف انه يجب ان يرد على الكلام اللاذع بمثله ، فبدا جزعا تعلو وجهه امارات القلق والاكتئاب ، وصاح بالجميع قائلا كأنه يستغيث :

– ما الذى يدعوكم الى الضحك ؟ يا جماعة ! لم اقل الا حقا ، فقد رجعت الى هنا فور وصولى الى المعسكر وسمعت هذا الخبر ، هل فهمتم ؟ لقد قال خه خان اذا لم نجد تشو تشى خان فسيبيد ابناء مروج كيبتشاك ابادة تامة ، واذا جرؤ احد على ابلاغه بنبأ الوفاة فسيصب فى فمه رصاصا مذابا (الآنك) . كيف ترون ؟ هل هذا مضحك ؟ اضحكوا يا جماعة ! اضحكوا ! ...

حينئذ غص نارمان بالبكاء ، ومسح دموعه بيده الغليظة ، ثم استطرد قائلا :

– ونحن رجال فريق عشرة الآلاف سنكون اول ضحية . فهل يستطيع اى منكم ان ينجو بأعجوبة ؟

اصبح الجو داخل الخيمة خانقا ، وحبس الجميع انفاسهم ، كأن هناك راحة يد ضخمة غير مرئية تطبق عليهم وتضغطهم خانقة انفاسهم .

– يا للمصيبة ! ان خه خان يفعل ما يقول ...

تمتم صوت عقيبته تنهدات أليمة . اما نارمان فانفجر بالنحيب

وتأثرت ببكائه اولئك النساء اللائى ظللن كابحات عواطفهن من شدة الخوف ، فبدأن ينشجن . اما الاطفال فبدأوا يبكون ايضا بكاء حادا فى خوف لا تدركه عقولهم . واندفع بعض الرجال الى باب الخيمة هربا من هذه الخيمة التى يسودها الذعر والرعب كأنهم يحاولون ان يتخلصوا من مخالب هذا الشيطان التى يمدها الى ارواحهم قبل الاوان . وساد الخيمة الضيقة جو من الفوضى والاضطراب ...

ـ لم هذه الفوضى ؟ أبهذا تستطيعون النجاة مما انتم فيه ؟

بغتتهم هذه الصيحة ، فتسمروا فى مكانهم ، والتفتوا بنظرة ذعر الى مصدر الصوت فاذا به المغنى كربوكا ! فبدوا كأنهم احسوا بوجوده لأول مرة كانوا قد نسوه هو وطنبوره نسيانا تاما من شدة يأسهم .

اما كربوكا فظل ممسكا طنبوره يتأمل فى وجوه الحاضرين مليا ثم قال :

ـ غدا سأذهب الى خه خان وابلغه بمصير تشو تشى خان ، فارجعوا مطمئنين . واتمنى لكل واحد منكم ان يهنأ لحلم جميل .

نهض نارمان من نومه قبل صلاة الفجر . والحقيقة انه لم يذق طعم النوم طول الليل برغم ان المغنى كربوكا قد تمنى له وللآخرين ان يهنأوا بأحلام جميلة . فكان كلما اغمض عينيه لاحت فى ذهنه ملامح وجه كربوكا التى لا يستطيع ان يتبينها بوضوح . فهو لا يستطيع ان يتصور ابدا كيف خطر ببال كربوكا

فى الوقت الذى يعول الآخرون فيه بأسا وقنوطا ان يذهب لابلاغ خه خان بنبأ الوفاة ، وهو عيى اللسان ؟ يا الله ! لا ينتظره هناك الا الرصاص المذاب الذى يغلى فى القدر النحاسية ! لقد بهت اول الامر حين سمع كلام كربوكا ،وظن انه لم يسمعه بوضوح من شدة الحزن ، غير انه تبين من الوجوه المدهوشة ان ذلك حقيقة لا شك فيها . بدنه ما زال يقشعر حتى الآن كلما تذكر ذلك الامر . ولا يستطيع ان يتوقع على الاطلاق نهاية ما سوف يحدث اليوم . لعل كل ما حدث الليلة الماضية لم يكن الا وهما .

كان نارمان يفرك عينيه المنهوكتين بالارق بين حين وآخر ، ويتطلع الى الدرب المؤدى الى معسكر الجنود المنغول ، فاذا جرؤ كربوكا على ان يقابل خه خان كما ادعى الليلة الماضية ، فهذا طريقه الاكيد . لا يستطيع نارمان نفسه ان يوضح الاسباب التى حملته على الانتظار هنا لعله يريد ان يتأكد ما اذا كان كربوكا رجلا كامل الرجولة يفعل ما يقول . ظل نارمان ينتظر حتى اذا ارتفعت الشمس فى السماء رأى المغنى كربوكا يركب وحده حصانا ارجوانى اللون ينطلق به مسرعا حاملا معه طنبوره الذى لا يفارقه ابدا ، فانقبض قلبه فجأة لسبب غامض ، وعندما اقترب منه كربوكا قفز بجنون الى عرض الطريق معترضا اياه . فجفل منه الحصان وتنحى جانبا . اما كربوكا فشد عنان حصانه بسرعة وتبين ان المعترض هو ذلك الجندى العجوز الذى رآه الليلة الماضية ، ثم قال :

— هيه ، أ تريد ان تجرب براعتى فى ركوب الخيل ؟

ـ لا ، لا تذهب ! لا تذهب ابدا ! ارجوك ! انهم سوف يصبون فى حنجرتك الرصاص المذاب دون ادنى شفقة !

صرخ نارمان بملء حنجرته ، وهو يجحظ اليه بعينيه المذعورتين ، وفى الوقت نفسه قبض على عنان الحصان بقوة كأنه لن يرخى قبضته ابدا وواصل صراخه :

ـ لن اتركك تمشى ابدا ، انى قد رأيت جبريل يلوح اليك بيده هناك !

اما كربوكا فارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ، وانحنى وهو على ظهر الحصان يربت كتف نارمان وقال مبتسما :

ـ شكرا لك ، ايها الكاتب !

ذهل نارمان واحس بحرارة تلذع خديه ، وتراخت دون ان يشعر يداه اللتا كانتا تقبضان العنان بقوة . فهز كربوكا رأسه مبتسما ، وهمز حصانه همزة قوية منطلقا نحو معسكر الجنود المنغول .

بقى نارمان مذهولا يشيع بنظراته المغنى كربوكا وهو يبتعد . وفجأة اسرع الى حصان كان يرعى فى المقصبة القريبة ، وامسك به دون ان يسأل عن صاحبه ، ثم حل لفافة ساقيه ، وربط بها عنق الحصان ، فجرى به دون سرج ولجام خلف المغنى .

لما اقتربا من خيمة خه خان التى تقع فى اعماق معسكر الجنود المنغول بعد ان مرا على ثمانية خطوط من الحراسة المشددة ، شبك حارسان رماحهما يعترضان عليهما الطريق ، فتحير نارمان

دون ان يدرى ماذا يفعل . ولما رأى كربوكا يقفز عن حصانه ألقى نفسه على الارض متعجلا . وكان المغنى كربوكا لم يبد اى استغراب حين ادركه نارمان كأنهما كانا قد اتفقا على ان يكونا رفيقين فى السفر وقال كربوكا :

– بارك الله فى خه خان المعظم ، اننا جئنا لابلاغه بخبر تشو تشى خان .

فخرج من الخيمة القريبة حارسان يلبس كل منهما معطفا ازرق مبطنا بالفرو موشحا فى طرف كمه بشريط احمر .

سرعان ما رفعت ستائر تلك الخيمة الصفراء المهيبة ، وترامى منها صوت آمر تناقله الحراس الثمانية الواقفون فى الطريق المؤدى الى الخيمة واحد بعد الآخر :

– امر خه خان المعظم بدخولهما !

فتراجعت الرماح المتشابكة . وكان نارمان ذاهلا لا يعرف ماذا يفعل فقلد آليا ما يفعله كربوكا : ترك حصانه ، وعطر نفسه بالبخور المتصاعد المقدس وسار فى الطريق المؤدى الى الخيمة شابكا يديه امام صدره . وكان كربوكا لا يزال يتأبط بقوة طنبوره العزيز ، ثم توقفا برهة امام الباب الذهبى حيث يقف حصانان احدهما بلون لبنى والآخر بلون اصفر فاتح ، وكلاهما مربوط بحبل ابيض فى ركيزة مسبوكة من الذهب ، ثم قادهما خادم الى داخل الخيمة ، واشار اليهما بالجلوس على اللباد .

حينئذ عاد نارمان الى وعيه وادرك انه الآن يجلس امام خه خان ذلك السلطان الذى ما ان يذكر اسمه حتى يسكت الاطفال

عن بكائهم خوفا . واخذ خه خان يتفحصه بعينيه الحادتين كالسيف. لكنه لم يجرؤ ان يرفع رأسه ليسترق منه نظرة . وتساءل ما الذى جاء به الى هنا فخانته الذاكرة . ولكن هناك شيء واحد لن يغيب عن ذهنه وهو ان باب جهنم ربما سيفتح له فى هذا المكان . فتألم قلبه ألما غامضا ...

– تكلم !

ترامى الى الاسماع صوت خفيف مهيب ، فقلص نارمان رقبته بغريزته وسرت فى سائر جسده قشعريرة ، فأغمض عينيه مستسلما اذ انه يثق كل الثقة بقوة الرصاص المذاب ، فلا شك انه سوف يحول جسده الى دخان فى لحظة واحدة قبل ان يذوق لسانه طعمه ...

كاد تفكيره يتوقف ، وبدا له كأن كل حواسه قد فقدت فاعليتها ...

.

غير انه احس بصوت خفيف رخيم يترامى اليه من مكان بعيد غاية البعد ، لا بد انه صرير الحشرات ، بل تمتزج فيه زقزقة العصافير ...

آه ، ما اجمل مروج كيبتشاك ! وما اجمل هذا الصوت الممتزج الفريد الذى لا يمكن ان يكون الا فى المروج ! انظر ، ان اشعة الشمس الزاهية تلثم المروج الخضراء المترامية بشفاهها الناعمة فى محبة وحنان ، وان قطعا متناثرة من السحب البيضاء تسبح فى السماء فوق المروج حرة طليقة تاركة فى المروج ظلالا

صامتة مختلفة الاشكال . لا احد فى المروج الا قطيع من الخيول الوحشية ترعى هادئة ساكنة فى ظل سحابة ، وتصدر شخيرا بين حين وآخر فى نشوة وسرور ...

رفع نارمان رأسه حائرا ، فرأى وجها مكفهرا احمر كالنار وعينين صفراوين موشحتين بالخضرة تحدقان اليه ببرودة ، فلم يتحمل تلك النظرة الباردة وارتعدت فرائصه وطأطأ رأسه بسرعة .

وبدا له مرة اخرى كأنه سمع ذلك النغم الجميل الذى يلوح ويختفى ، وخيل اليه ان رأى فريقا من الفرسان لاح فى المروج الهادئة وعلى رأسهم فارس مغرور . ما اجمل حصانه ! انه بدا فائقا متميزا اذا قورن بالخيول التى تجرى خلفه .

رأى هذا الفارس المغرور ذلك القطيع من الخيول الوحشية ، فهمز حصانه بشدة ، وتقدم غيره مندفعا نحوها ، فجفلت الخيول الوحشية هاربة ، فشد الفارس المغرور وتر قوسه وجرح حصانا منها ، وسرعان ما اختفت الخيول الوحشية فى الافق الا ذلك الحصان المجروح فقد اصيبت احدى قائمتيه الاماميتين الا انه لا يزال يجرى بجنون نحو منعطف النهر وهو اعرج ، لكن الفارس المغرور لا يرضى ان تفلت منه هذه الفريسة السهلة فطارده مسرعا وخاف فرسانه وراء ظهره بمسافة بعيدة الا فارسين او ثلاثة لا يزالون خلفه .

عندما كان الفارس المغرور يطارد هذا الحصان الوحشى الاعرج وتغلغل فى اجمة كثيفة عند منعطف النهر طرحته فجأة اوة خفية عن ظهر فرسه . وفى لحظة وقوعه على الارض رأى وجوها مألوفة ، فأدرك ما حل به ، لكنه لم يستطع ان يبدى حراكا ،

بل لم يفه بكلمة واحدة ، وظلت عيناه المترعتان بالندم والحنق تحدقان الى السماء بفتور ...

وجرى ذلك الحصان الوحشى الاعرج محاولا ان يتخلص من مخالب الموت ، فاخترق الاجمة الكثيفة ، وعبر النهر بجهد ومشقة ، لكنه وقع مرتميا على مستنقعات القصب عند ضفة النهر المقابلة . وبعد برهة وجيزة جاء عقاب من مصدر مجهول يحلق فوق المستنقعات ويصرخ صرخة حزينة كئيبة ...

ساد الخيمة سكون مطبق . وبعد فترة طويلة ترامى من خلف الحاجز نشيج امرأة هى ام تشو تشى خان .

ثم سأل خه خان بعد فترة قد طالت عليهم :

ـ ما اللحن الذى تعزفه ؟

فأجاب المغنى كربوكا بهدوء :

ـ حصان وحشى اعرج .

فزر خه خان عينيه حتى لم يبق منهما الا خيط ضيق ، واطبق فمه ، ثم لوح بأصابعه الغليظة فى الهواء ، فخرج جماعة من الحراس ، فقال خه خان آمرا :

ـ هاتوا الرصاص المذاب !

سرعان ما تناهى الى مسمع نارمان صوت غليان الرصاص فى القدر النحاسية ولما اعتقد ان الرصاص سيصب فى حنجرته بعد فترة رجيزة نسى الخوف فجأة ورفع رأسه يائسا ، فرأى خه خان يعتلى عرشه الذهبى وقد اغرورقت عيناه الصفراوان الخضراوان

بالدموع وتحدرت قطرات الدمع على خديه :

— هاتوا طنبوره !

ففعل الحراس ما امر به .

— وصبوا الرصاص فى الطنبور !

كان نارمان يحلق الى هذا كله فى استغراب وحيرة ، وقد بلل العرق جسده . وحين صبوا الرصاص فى الطنبور وحولوه الى دخان رأى نارمان المغنى كربوكا ينظر متألما الى ذلك المقبض الباقى من الطنبور وألسنة النار الجشعة تبتلعه ...

كلمة عن المؤلف



اقبال مجدى من قومية القازاق ، ولد فى محافظة هوتشنغ بشينجيانغ عام ١٩٥٤ ، وتخرج فى كلية اللغة الصينية بجامعة لانتشو عام ١٩٧٦ ، وبدأ ابداعه الادبى عام ١٩٧٩ ، وقد نشر مجموعات قصصية منها « خالدة بنت الخامسة عشرة » و« مجمع جديد من المبانى الرمادية اللون » و« حصان وحشى اعرج » . وقد فازت اعماله الادبية بجائزة وطنية للقصص القصيرة الممتازة وبجائزة ادبية وطنية للاقليات القومية . وهو عضو فى اتحاد الكتاب الصينيين وعضو فى لحنة الاقليات القومية الادبية لاتحاد الكتاب الصينيين ، ويشتغل الآن فى اتحاد الكتاب الصينيين .

شد همتك يا تورباني !

بقلم : ذوردون صابر من قومية الويغور

ــ ١ ــ

تناول نياز وثيقة الشحن ، ووضعها فى يد السائق السمين ، وقال له :

ــ اذهب الى محطة القطار واستلم بضاعتى من هناك . ستجد منى ما يسرك بعد عودتك ، وسأكون ودودا معك . وستعرف اننى انجزت معاملات شحن عشرة اطنان من الزبيب . على كل حال طريق العودة ليس بعيدا ، سنصل الى توربان بعد وقت قصير . وليس مهما لو تأخرنا قليلا .

قال السائق السمين فى نفسه : " ان هذا الرجل قد جرفته تجارة الزبيب ، واستفاد وكل اهالى القرية من رحلته السابقة الى قوانغتشو . ربما عاد ومعه بضاعة رائجة . وها قد جاء دورى لاستفيد . "

تناول وثيقة الشحن وصعد الى شاحنته لينطلق الى ساحة البضائع فى محطة القطار .

شد الموظف على الكمامة التى على وجهه وقال للسائق :

– ماذا فى هذا الكيس ؟ اسرع بنقلها من هنا . لقد دوختنى هذه الرائحة الخبيثة . كل التجار عادوا من قوانغتشو ببضائع ممتازة ، بينما بدد اهل توربان الحمقى اموالهم فى شراء هذه النفايات الكريهة !

واضاف يقول فى سخرية مشيرا الى الكيس :

– هذا يلوث ساحة البضائع ، ابتعد به حالا !

نقل السائق السمين الكيس المنتن برائحة حثالة تقطير الخمر الى شاحنته ، واخذ فى سره يلوم نياز : "يبدو ان فى الكيس زبيبا . ولكن لماذا انفق المال فى العودة به من قوانغتشو ؟ نياز احمق حقا ! "

فى طريق العودة الى توربان ظل السائق متجهما لم يتكلم مع نياز ولو كلمة واحدة .

وفيما الشاحنة تقترب من القرية فتح نياز باب الحديث :

– اوقف الشاحنة يا صاحبى ، اريد منك خدمة .

– قل بسرعة .

– ساعدنى فى نقل هذا الكيس من الشاحنة .

سأله السائق غاضبا :

– هل تظن ان اموالك قد زادت عن الحاجة ، فأخذت تنزعج منها ؟ لماذا رجعت من قوانغتشو بهذا الزبيب المتعفن ؟

قال نياز فى ابتسامة عريضة :

– هيا لندفن الكيس . سأدفع لك عشرة يوانات اخرى .

واياك ان تذكر هذا الامر لأى مخلوق.

عاد السائق الى صمته ليساعد نياز فى انزال الكيس من الشاحنة والقائه فى حفرة واسعة مهملة بعد ان حفظت فيها كرمات العنب فى الشتاء الماضى . واخيرا اخذا يهيلان التراب على الكيس . هز السائق رأسه وهو يحدج عينى نياز الصغيرتين تحت جفون منتفخة ، وقال بلهجة ماكرة :

– اعرف انك تريد ان تعمل حسب القول المأثور : لا تفضح جثة الكلب الوفى . أليس كذلك ؟

فما كان من نياز الا ان ابتسم قائلا :

– انك مخطئ ، لن تعرف ماذا دفن هنا ابدا .

– هل ثمة شيء غير الزبيب المتعفن ؟ هل من كنز نفيس؟

– لن اقول لك ولن تعرف ما فيه . هيا لنعد الى القرية . على كل حال اياك ان تفشى السر . وليطمئن قلبك ، فلن يضايقك شيء من جرائه .

واصلت الشاحنة سيرها . وكان الصمت يخيم عليهما والشكوك والريب تغلى فى جوف السائق ، ونياز طافح بالفرحة والسرور .

ليكن ما يكون من شكوك السائق وتخميناته . ففرحة نياز تستحق المشاركة ، اذ اتم معاملة شحن عشرة اطنان من الزبيب الممتاز الى قوانغتشو اليوم ، وهذا الزبيب سيتحول الى مبلغ كبير من النقود بعد شهر واحد . وها هو ذا اخيرا قد عاد بالكيس على حسابه ، ودفنه فى ارض توربان .

مهمته الاولى تبعث على البهجة لأنه سيربح كثيرا فى التجارة .

اما مهمته الثانية فماذا يبهجه منها ؟ دفع قبعته المطرزة بأزهار زاهية على طراز اهل توربان الى ذروة رأسه ، وابتسم محتفظا بهدوئه فى جلسته الى جانب السائق . وعادت رحلته السابقة تتراءى له مشهدا بعد مشهد كأنها شريط سينمائى . . .

نزل فتى ابيض البشرة صغير العينين ، يعتمر قبعة ملونة توربانية الطراز ، فى الطابق الرابع من فندق جيشيانغ بقوانغتشو . نزل درجات السلم فى خطوات متسارعة ليخرج الى احدى الحدائق العامة فى نزهة مبهجة بصحبة ايشان صديقه التوربانى الحميم . كان ايشان قصير القامة عريض المنكبين مفتول الساعدين ، ولم تكن معالم قوانغتشو غريبة عنه ، فقد ارتاد شوارعها شارعا واماكن المتعة فيها واحدا واحدا . كان موعدهما عند بوابة الحديقة ليلعبا ويلهوا كما كانا فى ايام الطفولة . ولكن لم يكد الفتى يبلغ باب الفندق حتى اقبل شاب يعترض سبيله . ووضع يده على كتف الفتى وقال فى مودة بالغة :

– اريد مساعدتك يا اخى نياز . لدى كمية كبيرة من الزبيب لم ابعها بعد . ارجو ان تفاتح ايشان بما يواجهنى من صعوبة فى هذا الشأن .

هذا الشاب من بلد نياز ايضا . ويدعى " ياكف" ولقبه "طويل الساقين" بسبب نحافته وطول قامته . رآه نياز اشعث الشعر متسخ الوجه حافيا غائر العينين ، يبدو عليه انه ازداد نحافة وسمرة . فسأله :

– ماذا تواجه من صعوبة ؟

– تعال معى يا اخى العزيز لو سمحت ، وستعرف كل

شيء لأول وهلة .

تبعه نياز الى احد مفارق الطرق ، حيث تراكمت صناديق كرتونية بلا انتظام فى ظل شجرة ، مملوءة بالزبيب الفاسد على شكل كتل ممتزجة . وكان من المارة من يتناول قبضة من هذا الزبيب يتفحصها فى يده قبل ان يرميها فى الصندوق ويذهب الى حال سبيله ، ومن ينعطف عن كومة الصناديق وقد سد انفه بيده ، وهناك من كان يركل صندوقا او صندوقين ركلا شديدا . فوجئ نياز بالزبيب الرائج فى السوق يقابل هنا بمثل هذه البرودة . ولكن من يشترى الزبيب الفاسد ؟ وماذا يعمل ياكف ؟ ظهر امام عينى نياز جبل اللهيب الاحمر ومياه الكهريز الصافية ووادى العنب الطويل الضيق فى توربان . فعاتب ياكف قائلا :

— يا توربانى ، ستخسر فى تجارتك . ولكن الاسوأ من ذلك ان زبيب توربان قد اتلف .

فى تلك الليلة لم تعرف عينا نياز النوم وظل يتقلب على السرير وهو يفكر : اشتريت بضعة عشر طنا من الزبيب بسعر ٥ر٨ يوانات للكيلوغرام الواحد ، ونقلته الى هنا ، وبعته بالجملة لمحافظتين بسعر ٤ر٧ يوانات للكيلوغرام ، فحققت ربحا مجزيا بلغ ٠٠٠ر٢٤ يوانٰ . يبدو انى حصلت على هذه النقود بسهولة . انظر ، لقد جمعت الزبيب فى توربان ووضعته فى اكياس ، ثم خدعت اداريى السوق ، واستأجرت سائق شاحنة من اهل هامى بألف يوان ، وطلبت منه ان ينقل هذه الاكياس الى جيوتشيوان بمقاطعة قانسو . تولى هذا السائق مسؤولية شحن الشاحنة وتفريغها كيسا تلو

الآخر ، لم تنزل من جسمى ولو قطرة عرق واحدة . لقد ساعدنى القرويون المحليون من كل مكان ، ولولا ذلك لما كسبت ما يزيد عن ٢٠ الف يوان بهذه السهولة ؟

وصباح اليوم التالى اخذ نياز يذرع المكان امام باب الفندق ذهابا وايابا ، وهو يفكر : " تخلفت عن الموعد يوم امس ، أأذهب اليوم الى الحديقة ام اذهب الى ياكف المسكين ؟ " مما لا شك فيه ان السرور ينتظره فى الحديقة ، اذ يمكنه ان يستمتع مع صديقه ايشان فى تجديف زورق والتقاط صور وتذوق اطعمة شهية فى مطعم فاخر . وجملة القول ، يمكنه ان يستمتع بكل ما لا تعرفه توربان من المتعة ، اى يستمتع بكل ما يروق له وكيفما شاء . كيف لا ولديه المال . " اذا كسب الانسان اموالا ولم يستمتع بها ، فأين هى رجولته ؟ " هذه الكلمات كانت قد انطلقت على لسان ايشان ، وهى معقولة الى حد ما . من المؤكد انه ليس صاحب معارف كما هو حال ايشان . ولكنه ما دام قد وصل الى قوانغتشو ، فلا بد من ان يوسع آفاقه . وفيما هو كذلك تحسس بشكل طبيعى حقيبته المقفلة التى لا تفارقه سواء أ كان ماشيا او واقفا ، لأنها مملوءة بالنقود .

اربعة وعشرون الف يوان . . لم يعدها بيديه قط ، بل انه لم ير هذا المبلغ . كيف كسب هذه النقود فى قوانغتشو بمثل هذه السهولة ؟ طبعا ، كسبها بمساعدة ايشان . ولو لم يذهب اليوم الى ايشان ، لغضب منه بالتأكيد . قبل شهرجاءه ايشان فى عجلة من امره ، ووضع امامه اتفاقية مكتوبة باللغة الصينية ،

وقال وهو يدق على تلك الاتفاقية بسبابته واصبعه الوسطى :

— هل يمكنك ان تحصل على عشرة اطنان من الزبيب ؟

لكن جواب نياز ادهشه فصاح :

— ماذا قلت ؟ ما هي العلاقة بينك وبين عدم انجاز خط الشراء للمحافظة ؟

— توربان موطننا . واذا لم تنجز شراء الزبيب فقدنا ماء وجوهنا يا اخي .

— ليس على لسانك الا توربان . . توربان !

وضع ايشان يديه فى جيبي جاكيته وقال :

— لن تغتني فى توربان . كسب النقود لا يتحقق الا فى قوانغتشو وشانغهاي . هل تعرف اني كسبت اربعة عشر الف يوان فى رحلة من رحلاتي .

فتح نياز عينيه مدهوشا وقال :

— اربعة عشر الف يوان ؟ ألم تسرق هذا المبلغ يا اخي ؟

— ما رأيك ؟ احسنت فى عملي ، أليس كذلك ؟ تتعب طول الصيف فى جو قائظ تصل حرارته الى ٤٧ او ٤٨ درجة مئوية ، وتلوثك التربة والطين ، ولا تكسب الا ٢٠٠٠ او ٣٠٠٠ يوان على الاكثر ، لا يمكن لزبيب توربان ان يتحول الى مال الا بعد ان يصل الى قوانغتشو . لا تمش فى الطريق التي سلكها ابوك ، فلن تعثر على حظك السعيد بالحفر عليه فى الطين . عليك ان تفتح طريقك فى المدن الكبيرة . انت تحمل شهادة ثانوية ، فلا تنظر الى ما تحت انفك فقط ، بل عليك ان تتطلع الى بعيد .

غرق نياز فى التفكير ، ووجد ان كلام صديقه معقول . يصعب على اهل توربان الذين يكدون ويتذوقون المرارة ان يستمتعوا بالعنب . يشترى اهل المدينة كيلوغراما من الدقيق بـ ٥١ر٠ يوان ، بينما يشترى مزارعو العنب كيلوغراما من القمح بـ ٥٨ر٠ يوان ، يعنى انهم يشترون الدقيق بـ ٦ر٠ يوان . تكالف زراعة غرسة واحدة من العنب ٤٠ او ٥٠ يوانا ، ولا بد من بذل جهود مضنية فى الصيف كله ، ثم بعد تجفيف العنب يأتى افراد الوحدة التجارية يشترون الكيلوغرام من الزبيب بـ ٧ر٣ يوانات . واذا انجزوا خطتهم فى الشراء ، اشتروا كيلوغرام الزبيب بـ ٥ر٥ يوانات ، ثم ينصرفون فور انتهائهم من الشراء . ويمكن لأغنى مزارعى العنب ان يبيع ١٠٠٠ او ٢٠٠٠ كغم من الزبيب ويبيع غيره ٢٠٠ او ٣٠٠ كغم فقط وهم يفغرون افواههم من الفرحة . ولكن ما قيمة ٢٠٠ او ٣٠٠ كغم من الزبيب ؟ وقد كسب ايشان ٢٠ او ٣٠ الف يوان فى رحلة واحدة . اما مزارع الفواكه فحتى لو تعب الف مرة لا يحصل الا على مئات اليوانات او آلاف اليوانات على الاكثر . لذلك ما يزال عدد الفلاحين الذين ينقصهم المال والحبوب الغذائية غير قليل حتى الآن ، فلا بد للحكومة ان تقدم مساعدة كبيرة من الحبوب الغذائية او البذور . لقد اصاب ايشان فى قوله . لماذا لا اشق طريقى خارج موطنى !

عقد نياز العزم وغادر موطنه وكسب ٢٤٫٠٠٠ يوان فى مدة ٣ او ٤ اشهر ، فأصبح صاحب عشرات الآلاف من اليوانات فى طرفة عين . حقا انه قد حصل على هذا المبلغ بسهولة نوعا ما .

فبعد ان سمع حديث ايشان لم يقدم على فعل آثم ولم يخالف القانون . اكتفى بركوب السيارة ذهابا وايابا ، وحصل فى النهاية على النقود . انه لم يحمل كيسا ولم يمسك بميزان ، بل عمل كل شيء مستفيدا من قوة المال . ها قد مضى على قدومه الى قوانغتشو شهران ، ويقيم الآن فى الطابق الرابع فى فندق جيشيانغ ، ويدفع ٥ر٠ يوان لكل من وجبتى الفطور والعشاء ويتناول نفس الشاى والخبز . اما على الغداء فيتناول طبقا من الشعرية بـ ٥ر٣ يوانات . واحيانا يأخذ تبغا من ذلك الطباخ القادم من ايلى ، ويلف سيجارة ويدخنها . وليس لديه اية هواية اخرى . سافر ايشان الى مدينة قوشان بعد ان اخذ منه مبلغ العمولة ، واشترى هناك منسوجات من النيلون والتيرلون بسعر ٦ يوانات للمتر الواحد ، ونقلها بكميات كبيرة الى توربان . هكذا يقوم بالتجارة بالنقود التى كسبها من بيع الزبيب ، وحول اليوان الواحد الى ١٠ يوانات ، ثم حول اليوانات العشرة الى مائة . اما نياز الذى ارتضى مثل ابيه ان يتعامل مع الارض فهو قنوع بما كسبه من النقود فى تجارة الزبيب . وتفحص النقود مرة فى كل يومين لأن فى هذه النقود نصيب جيرانه واهل شارعه . ونظرا لأن حكومة المحافظة منعت مزارعى الفواكه من بيع منتجاتهم بأنفسهم قبل انجاز مهمة شراء الزبيب التى حددتها الدولة ، صار يتنقل بين العائلات فى منتصف الليل فرارا من رئيس الناحية الذى يتمنى ان يحصل على مكافأة انجاز المهمة ومقدارها ٣٠٠ يوان ، ومن كوادر حكومة القرية الذين يتتبعون مخالفى القانون ليلا ونهارا طمعا فى مكافأة مقدارها مائة يوان ، وجمع

بصعوبة عشرة اطنان من الزبيب مخاطرا بنفسه ، واشتراها بستة يوانات للكغم الواحد ، وصفى الحساب مع البائعين . ولكن يتعين على المرء ان يتصرف من وحى ضميره ، ونياز ليس مطمئنا لأنه كسب ٢ر١ يوان من الكغم الواحد من الزبيب . اما ايشان فهو مختلف الحال ، اذ لا يفكر فى مصالح الآخرين ابدا . ونياز يختلف عنه فى هذا الامر كثيرا ، فقد ارق فى الليل ، ولم يجد للطعام مذاقا لما فعله مع جيرانه . ففكر : كيف آخذ وحدى هذه الارباح الطائلة ؟ انهم جيرانى الذين اعيش معهم منذ سنين طويلة واشاركهم فى السراء والضراء ، فلا يجوز لى ان اعاملهم بقلب اسود . بعد عودتى ازيد نصف يوان لكل كغم . يكفينى ان اربح ٧ر٠ يوان فى الكغم . وفيما هداه تفكيره الى هذا استدار عائدا الى غرفته فى الفندق ، واصبحت رغبته فى التجول فى الحديقة ليست شديدة كما كانت ، بل رغب فى ان يبقى وحده فى الفندق ، آه ، ما اشد الحرارة والرطوبة فى مدينة قوانغتشو ! اننا فى ديسمبر ، والازهار ما زالت تتفتح فى شوارعها . كانت السماء ترذ رذاذا خفيفا فى هذا اليوم ، ولكن عددا غير قليل من الناس ينشرون مظلاتهم ساعين وراء لقمة العيش . اما توربان فهى فى هذا الوقت ارض جرداء ، شأنها شأن ثور سقط عنه شعره . وكرمات العنب التى تتدلى منها عناقيد العنب الحلو اللذيذ بكثرة فى عز الصيف قد دفنت على عمق ثلاثين سنتيمترا فى تربة مبللة ، تمضى ايام السبات الشتوى هناك ، ولا تستيقظ الا فى ابريل القادم حين يبدأ مزارعو الفواكه تسميدها وريها وتقليم اغصانها . وبعد ذلك تورق

وتحمل ، ثم تنزل ثمارها الى الاسواق .

يا توربان ، اليك تجتذب القلوب ! ان لأرضك الجافة والحارة جاذبية كبيرة . ود نياز لو استطاع ان يعود الى توربان على الفور ، ولكن ضميره لم يسمح له بالرحيل سريعا تاركا ذلك الشاب الجالس القرفصاء على جانب الطريق بجانب زبيبه الفاسد . ماذا يعمل هذا الشاب ؟ ربما يغطى الزبيب بغشاء بلاستيكى لوقايته من المطر ، ولكنه لا يستطيع ان يحول دون تعفن وفساد الزبيب . ربما يروج لزبيبه للمشاة بصوته المبحوح تحت المطر . ولكن لا احد سيشترى منه مهما روج لبضاعته وتوسل ، ولن يلاقى زبيبه المشؤوم سوى سخرية الناس . ربما وصلت الى اذنيه توبيخات العامل المسؤول عن تنظيف الشارع ، فاشتكى للمارة او طلب منهم المساعدة ، وتوسل اليهم ان يشتروا منه الزبيب وعيناه مغرورقتان بالدموع : " ايها الاعمام ، يقال ان الزبيب يباع بثمن غال فى مدينة قوانغتشو ، فنقلت من شينجيانغ كمية من الزبيب وقد اصابنى تعب شديد . ولكن منذ شهر وانا اذرع الشوارع والازقة ، فلم ابع الا مائة كيلوغرام منه بأقل من تكاليف النقل . يباع الكيلوغرام الواحد من الزبيب فى شينجيانغ بسبعة يوانات ، وبعته هنا بأربعة فقط ، يعنى انى اقدمه هدية للناس ، فخسارتى كبيرة . لذلك اطلب من اخوتى المسلمين ان يساعدونى ، وان يشترى كل واحد منكم ولو كيلوغراما واحدا ." ولكن لا مستجيب لهذه الاستغاثة التى اطلقها هذا الشاب الويغورى ذو الشعر الطويل والوجه النحيف الشاحب . لم يشتر احد شيئا سوى نياز الذى

اشترى عشرة كيلوغرامات بخمسين يوانا . لو كان نياز مكان ياكف لما قام بنقل هذا الزبيب الذى عولج بهيدرواكسيد البوتاسيوم بعد تجفيفه ٨ او ٩ ايام الى قوانغتشو ليفقد ماء وجهه . حقا لقد اساء هذا الى سمعة زبيب توربان ، وشوه كذلك سمعة الاهالى هناك .

امام باب فندق جيشيانغ رأى ايشان تتأبط ذراعه فتاة حسناء ، فسأله غاضبا :

ـ لماذا لم تف بوعدك ايها الفلاح ؟

ـ معذرة ، لقد انشغلت فتخلفت عن الموعد .

ـ وماذا شغلك ؟

ـ فسد زبيب ياكف ، ورغبت فى مساعدته غير انى لم استطع . فهل يمكنك ان تساعده ؟

ـ انك لأحمق . ليعمل قلبك الطيب خيرا فى توربان ، ان صاحب القلب الطيب لن يحقق الارباح المرجوة . اذا اردت ان تفعل الخير هنا فستعود الى بيتك عاريا . هيا لنعب من اللعب ما يملأ قلبينا طوال اليوم .

ـ لا تستغرب من كلامى هذا . انوى ان اصحب ياكف عائدين الى توربان غدا .

ـ ماذا قلت ؟ ماذا يعنيك امر ياكف ؟ هو الآن يبكى ، ولكنه بعد فترة قصيرة سيبيعك . انه رجل ماكر . هل تريد ان تعود بزبيبه الفاسد ؟ ستستقبلك زوجتك من دونه .

ـ اسخر منى كما تشاء يا ايشان ، ولكن لا بد من ان

تساعده فى بيع الزبيب . فلك معارف كثيرون هنا ، حاول ان تروج لبعض زبيبه ، ارجوك .

ــ ها . . ها . . ها . . .

نزل ايشان الى الطابق الاول متأبطا تلك الحسناء وهو يطلق ضحكات رنانة :

ــ القلب الطيب لا قيمة له هنا .

بدا ايشان البدين القصير القامة الذى يمشى بجانب تلك الفتاة الممشوقة القد مثل اسطوانة تتدحرج على عجلتين .

احتار نياز من نصيحة صديقه ، هل تقدر الطيبة هنا بالمال ايضا ؟ لذلك ليس غريبا ان وقع اختيار تلك الحسناء عليه وهو الفلاح القبيح الوجه ، والادهى من ذلك انها تنام معه ! . . .

ارق نياز فى تلك الليلة ، ودارت فى مخيلته سخرية ايشان منه ، وقنوط ياكف والزبيب المدوس . فنهض من سريره ، يتأوه بلا انقطاع ، ناظرا الى الرذاذ خارج الشباك .

ايقظه صوت المؤذن عند الفجر ، واضيئت الانوار فى الفندق ، وهب كل التجار المسلمين المقيمين بالفندق يتوضأون ، واتجهوا الى المصلى الذى استأجره المسلمون على حسابهم فى الطابق الثانى لأداء الصلاة . وتوضأ نياز ، ودخل المصلى لأول مرة بعد وصوله الى هنا .

بعد صلاة الفجر وقف نياز عند باب المصلى ، واعترض طريق الخارجين منه قائلا بصوت عال :

ــ اخوتي انتظروا قليلا . ياكف يحتاج الى مساعدة . عدة

يوانات لا قيمة لها عندكم . ليشترى كل منا عدة كيلوغرامات من الزبيب فنجمع له بعض المال الذى يساوى تكاليفه فى شراء زبيبه ، والا كانت خسارته باهظة .

اندفع التجار الى الخارج كأن لم يطرق آذانهم شيء . وكان نياز الواقف بينهم كأنه بعرة خروف تهتز فى الغربال ذات اليمين وذات الشمال . فهنالك من ظهرت على محياه تعابير الاستهجان ، ومن رمقه بطرف عينيه ، ومن اطلق لسانه فى السخرية . وسرعان ما خرجوا جميعا . فلم يتمالك نياز ان انفجر غاضبا يقول فى نفسه : " ماذا طلب هؤلاء فى صلاتهم من الله سبحانه وتعالى ؟ هل طلبوا من العلى العظيم ان يلهم الآخرين عمل الخير فقط ، بينما ليست لديهم ذرة من انسانية . "

آنذاك وقع بصره على احد المسلمين قابعا فى ركن مظلم من المصلى ، فقصده وقال له كأنه متسول :

— اعمل خيرا ايها الصديق . . .

ولم يكد يكمل كلامه حتى اكتشف ان هذا الرجل ليس الا ياكف نفسه .

قال ياكف وقلبه يتفطر حزنا :

— قد فهمت مرادك يا اخى الاكبر ، ولكنك لم تدرك ان ضمائر اولئك قد تركوها بجانب مضيق شينغشينغ :

— هل ستخرج اليوم تبيع الزبيب ؟

— لن افعل ذلك . فقد انتهت المهلة .

— ايه مهلة ؟

قال ياكف مطرق الرأس مرتعش الكتفين :

ــ المسؤولون عن الحجر الصحى طلبوا منى ان انتهى من بيع الزبيب فى غضون ثلاثة ايام ، والا ألقوا الزبيب فى اكوام القمامة . اليوم سيأتون بشاحنة القمامة .

حول نياز رأسه وقال فى حزن :

ــ لا تبك يا اخى ، فأهل توربان لا يحبون البكاء !

بعد الفطور انطلق نياز على الفور الى بسطة ياكف . وقال لنفسه : ما فائدة الضمير اذا لم يظهر فى مثل هذه الحال ؟ هل نعلقه على افواهنا ونتحدث عنه فى الكتب ؟ هل يجوز لانسان حقق ارباحا من عشرة اطنان من الزبيب ان يتسول الى الآخرين فى امر كهذا الامر البسيط ؟

عندما وصل الى بسطة ياكف وجده يحنى جسمه امام عدة اشخاص يمسكون فى ايديهم المكانس ، وعلى ذراع كل منهم علامة حمراء ويقول متلعثما :

ــ امهلونى يوما آخر ، يوما واحدا ، يوما اخيرا . . .

ــ هذا محال .

قالها عجوز اصلع يرتدى بنطلونا قصيرا وقميصا ابيض ، وحرك الزبيب المتلاصق برأس مظلته واستطرد قائلا :

ــ هذا الزبيب لا يصلح للاكل ، فهو سام .

ــ بل هو زبيب جيدا . هناك من يطلبه .

وكاد ياكف يبكى من شدة القلق .

ــ من يريد هذا الزبيب ؟

صاح نياز بصوت مرعد :

— انا ، انا الذى اريده . سأشتريه كله . انه زبيب ممتاز جدا !

وكان من بين جمهرة المتفرجين على هذا المشهد المثير من وجد فى كلام نياز غرابة ، ومن ضحك عليه ومن علق بصوت خفيف .

قال شخص وهو يشير الى القبعة الصغيرة المطرزة بأزهار حمراء على خلفية زرقاء غير دقيقة الصناعة فوق رأس نياز :

— انه من اهالى توربان . اهل توربان لا يفرطون بأشيائهم ابدا .

وقال نياز موجها كلامه لياكف :

— ضع الزبيب فى الكيس .

وبعد ان عادا الى الفندق قال ياكف :

— ما العمل يا اخى الاكبر ؟

— سننقل الزبيب الى توربان بالقطار . لا يمكننا ان نفرط به ابدا . أتفهم ؟

واكتسح السرور جوانح ياكف لأنه لم يخسر . ولم يرغب فى ان يطيل التفكير فى طبع نياز . ومنذ ذلك اليوم صار يهتم بهندامه ، ويضع فى اصبعه الجاف الرقيق خاتما . تحول ياكف الى شخص آخر فى ليلة وضحاها ، وعادت الى شفتيه ابتسامة متصنعة كانت قد اختفت مدة طويلة . اما نياز فقد اشترى بأموال طائلة كومة من المهملات ، وصدره مشحون بالقلق .

وفى تلك الليلة قال نياز لياكف :

– ساعدنى على الاقل فى نقل الزبيب الى قطار كى انقله الى محطة داخيان .

– يا لك من غبى ! ماذا ؟ أحقا تنقله الى بلدنا ؟

ضحك ياكف وقال :

– ظننت انه قد جاءنى مشتر اغبى منك . شكرا لك لشرائك هذه الكومة من المهملات انقاذا لماء وجهى .

فقال نياز رافعا قبضته :

– عيب ان تقول هذا . ماء وجهك لا قيمة له . لقد اشتريت سمعة زبيب توربان .

هذه هى حكاية دفن الكيس الذى فاحت منه رائحة نتنة فى الشاحنة من ألفها الى يائها . غير ان السائق السمين لن يعرف الامر على حقيقته .

— ٢ —

وما هى الا عدة ايام حتى اخذ وجه نياز المبتسم يتصبب عرقا ويتشح بالحزن . فوالده لم يقبل ان يعود ابنه للسفر الى مدينة قوانغتشو ، بل اعترض على ذلك . ولما جاء الى والده لوداعه قال الوالد مشيرا الى انفه بعكازه :

– لولا مصالح الاقرباء بالقرية لكسرت رجليك اللتين تنقلانك هنا وهناك . لقد تركت كل الاعمال فى بيتنا لزوجتك ،

فما فائدة السفر من اجل كسب المال ؟

ودع نياز الاقرباء والاصدقاء ، واستقل القطار فى محط داخيان حاملا حقيبتين ثقيلتين . كانت عربات القطار شد الازدحام بالركاب ، فشق طريقه فى ملابسه الشتوية بين الناس . وا عدة عربات ولكنه لم يجد ولو مقعدا واحدا . كانت بعض العربا غاصة بالركاب حتى شق عليه ان تطأ قدمه ارض العربة . وحقيب محشوتان بالمأكولات واللوازم اليومية وهدايا اقربائه واصدقائه وتزن كل منهما ١٥ كيلوغراما على الاقل ، فشعر بأنهما اصبح اثقل فأثقل ، ولم يجد مكانا ليضعهما فيه . فوخزه الالم فى يد والتعب فى ساقيه ، وتصبب العرق من سائر بدنه . كم كان يتمن لو جلس ليرتاح قليلا ، ولكن من اين له موطئ قدم . فبدأ يكيل لنفسه الشتائم فى سره : " تبا لك . هذه هى فائدة السفر البعيد لقد تبجحت امام الناس ، وانت تدق صدرك بيدك قائلا انك ستبيع كيلوغرام الزبيب بثمانية يوانات ، الويل لك . انك تريد لنفسك هذ الزبيب . ولو استمر السفر على هذا المنوال لصعب عليك ان تصل الى هامى ناهيك عن مدينة قوانغتشو . "

وفيما هو على هذه الحال امتدت يد شاب اليه وهو يقول

— ناولنى حقيبتك يا رفيق .

هذا ما كان يريده ، فناوله الحقيبة على الفور .

— الى اين انت مسافر ؟

— الى قوانغتشو .

ارتسمت بسمة على شفتى الشاب ، وقاده الى رئيس طاقم

القطار . وبعد ان عرف هذا الشاب رئيس طاقم القطار تفحصه
الاخير من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، فوجده يعتمر قبعة
ـيرة مطرزة بأزهار حمراء على خانمية زرقاء ، وشعره منسق ،
ا رأسه لامعا ، ولكن اوداجه منتفخة تعبا ، وتحت حاجبيه
ـغيفين رموش عينين صغيرتين مثلثتى الشكل ، وملابسه ريفية ،
ـدا منتفخا ، ثقيل الحركات ورأسه يتصبب عرقا . فما لبث
ـيس طاقم القطار العابس الوجه دائما ان انطلقت منه ضحكة
ـال .

– من اين قادم ؟

– من توربان .

– لتتاجر بالزبيب ؟

– انا فلاح .

– هل يوجد فلاح لا يزاول التجارة ؟

– ما تقوله صحيح . ولكننى تاجر وفلاح . لا ، بل فلاح وتاجر .

اثار كلامه ضحكات الناس . تناول رئيس طاقم القطار التذكرة والهوية من يده ، وسأل الشاب وقد امال رأسه :

– ما العمل ؟ حقا لا يوجد مقعد فارغ .

– لدى ثلاثة مقاعد فارغة .

– ولكنها فى عربة المقاعد اللينة ، ألا يرى ذلك غاليا ؟

قال نياز :

– ليست مشكلة ان يكون المقعد فى عربة المقاعد اللينة .

ثم اخرج من جيبه قبضة من الاوراق النقدية وقال :

— مهما كان الثمن فسأرتاح اذا ما توفر لى مقعد .

شق طريقه بين عربات المقاعد الخشنة ، ووصل الى عربة المقاعد اللينة الهادئة المريحة وقال فى نفسه : " يا للراحة هنا . يوجد ايضا ترموس ماء . "

وجه نياز سؤاله مستغربا الى ذلك الشاب الطويل الشعر ذى الخاتم الذهبى :

— يبدو ان هذه المقاعد خاصة بكبار المسؤولين ؟

فرد الشاب دون مبالاة وهو منهمك فى القراءة :

— كل من معه مال يستطيع الجلوس هنا .

تأمل هذا الشاب على نحو دقيق ، فوجده يلبس بلوفرا ملونا وبنطال جينز ضيقا ، وفى قدميه حذاء ذو كعب عال . يظهر عليه اعتداد بالنفس ويلزم الصمت دائما ، ومن ملامحه تبدو سذاجة الطفل .

— اين تعمل يا اخى ؟ حبذا لو كنا صديقين .

واخرج من حقيبته بعضا من طعام وشراب ، ووضعه فوق الطاولة الصغيرة وقال :

— تفضل يا اخى . بفضلك حصلت على هذا المقعد الناعم ، والا كنت اشبه برأس خروف او كوارعه وهى تغلى فى القدر . نحن اهل توربان نعرف اللغة الصينية . يمكنك ان تتحدث معى بالويغورية او الصينية . ما رأيك ان نتحدث قليلا . بعد ان تصل الى قوانغتشو سأدعوك الى مطعم فاخر . لى صديق اسمه ايشان يقيم فى قوانغتشو ،

سافر ايضا الى تشوهاى وشنتشن وجزيرة هاينان وفوشان . اذا ما ذكر اسمه فكل تاجر يعرفه . لا يعرف صعوبة فى كسب المال ؛ فهو كالذى يغرف السمك من البحيرة بالمصفاة . سأعرفك به فهو ماهر فى اللهو .

ارتسمت على شفتى الشاب ابتسامة خفيفة ولم يقل شيئا ، بل رشف جرعة من الشاى . ودخل عامل فى مطعم القطار ليبيع تذاكر العشاء . لم يطلبا شيئا . ثم استطرد فى التعريف بنفسه :

- اسمى نياز فلاح من توربان . هذه رحلتى الثانية الى قوانغتشو . فى رحلتى السابقة حملت مع ايشان عشرة اطنان من الزبيب وبعته بالجملة للوحدات التجارية التابعة للمحافظتين ، وجاء من وراء ذلك ربح وفير . كسبت ٢ر١ يوان فى كل كيلوغرام من الزبيب فى قوانغتشو . بعد ان دفعت نصف يوان لأهل القرية ربحت ٧ر٠ يوان ايضا . انى قنوع بهذا الربح . الكل استفادوا من هذه التجارة ، فطلبوا منى ان اسافر مرة ثانية . طبعا خسرت شيئا ايضا فى المرة السابقة . ونظرا الى ان حكومة المحافظة تمنع الفلاحين من ان يبيعوا الزبيب بأنفسهم قبل بيع حصة معينة للدولة فقد اشتريت الزبيب من الفلاحين سرا ، وهذه مخالفة لقانون المحافظة . فلقيت انتقادا بعد عودتى . ومن حسن حظى ان النقود التى كسبتها لم تصادر ، والسبب ان قريتنا قد تجاوزت الهدف المطلوب . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى اشتريت بسعر ٥ر٦ يوان فدافع الجميع عنى . ان السعر الجارى الذى تشترى به الوحدات التجارية الزبيب من الفلاحين ٥ر٨ يوان ، فسعرى

يزيد عن سعر الحكومة ٧ر٠ يوان . وهذا يدخل السرور الى قلوب الفلاحين دون شك . فى هذه المرة جمعت عشرة اطنان اخرى ، وفى يدى اتفاقيتان مع محافظتين . ويتعين ان اسلم الزبيب قبل يوم ٣٠ يناير حسب الاتفاقيتين . ارسلت بضاعتى قبل عشرة ايام واليوم هو ٨ يناير . وستصل بضاعتى الى قوانغتشو يوم ٢٠ يناير ان شاء الله . اذا كسبت اكثر فى هذه المرة ، فالنصيب الاكبر مما سأكسبه سيكون من نصيب اهل القرية . ربما تسأل لماذا ؟ لأن الفلاحين يكدون ويتعبون ، ومن حقهم ان ينالوا اكثر . انظر ، يباع الكيلوغرام من لحم الضأن بـ ٥ر٥ يوانات ، والضأن يترعرع على اعشاب الله . تباع منسوجات التيرلون عندنا بـ ٨ او ٩ يوانات للمتر الواحد . والتيرلون — كما تعرف — ينتج من النفايات المهملة . ولكن زراعة العنب اصعب من ذلك بكثير .

جذب نياز قلب الشاب ، فأغلق الكتاب بين يديه ، وراح يصغى اليه بانتباه .

— لا تكليف بيننا يا اخى . تفضل . لعلك حين رأيت قبعتى الملونة الزاهية اردت ان تتحدث معى ، أليس كذلك ؟ هل تسخر من قبعتى الملونة ؟ زوجتى هى التى طرزتها بنفسها . ربما ليست جميلة كثيرا ، واربع زهرات حمراء مطرزة عليها تتعب عينيك . ولكنك لو نظرت اليها كما انظر اليها لوجدتها اجمل من تاج الملك . لا تضحك ، صدق او لا تصدق ، انى لا احب شعرك الطويل الذى يصل الى كتفيك والخاتم الذهبى الذى فى اصبعك

الناعمة . وانت كذلك لا ترغب فى رؤية حذائى الطويل . اعلم ان هذه الاشياء مناسبة لى ، وارتاح بها فى السير سواء فى شوارع شينجيانغ ام قوانغتشو . ولكنك قد لا تكون مرتاحا بجاكيتك المفتوحة من الخلف وربطتك الاجنبية وبنطلونك الضيق . هل تعرف السبب فى ذلك ؟ الناس يعرفون مباشرة انى من اهل توربان الحقيقيين من ملابسى . اما الذين يلبسون مثلك ، عددهم كبير ، فلا يسترعون انظار الناس وهم يمشون فى الشوارع . اما انا فحالما يلمحنى الناس بهذه القبعة الملونة على شكل عرف الديك يدركون انى من اهل توربان . ويدركون انهم لن يخسروا شيئا فى التعامل معى . وكل من يرانى يبتسم . لذلك حققت ارباحا كبيرة واجلس الآن فى عربة القطار الجديدة برئيس مجلس الدولة . لا تضحك ، هيا لنشرب . لماذا تلزم الصمت ؟ انا احب الكلام . انت لا تحب ان تتكلم ، ولكنك تبتسم فقط وشهيتك مفتوحة . انى احب امثالك . انت رجل طيب . ولكن ارجوك الا تؤاخذنى اذا قلت لك انى لم اتعود ان ارى مثل شعرك الطويل الذى يغطى حاجبيك ولا خاتمك الذهبى ، ذلك لأن شخصا ذا شعر طويل وفى اصبعه خاتم ذهبى قد خدعنى واخذ منى نقودا بقيمة خمسين كيلوغراما من الزبيب . لا تسخر منى ، قيمة خمسين كيلوغراما من الزبيب ليست شيئا كبيرا ، غير ان الفلاحين قد تعبوا كثيرا فى هذه الكمية القليلة من الزبيب . انك اذا عرفت ذلك فان تسخر منى . ربما استطعت ان تشترى كيلوغراما واحدا من الزبيب بستة يوانات فى توربان ، ثم تنقله الى قوانغتشو وتبيعه بثمانية يوانات ، ومن ثم

فان خمسين كيلوغراما من الزبيب تساوى اربعمئة يوان حسب سعر قوانغتشو . ربما قلت : " يشكو تاجر الزبيب الذى يحمل فى جيبه عشرات الآلاف من اليوانات بعد ان خسر مبلغا صغيرا كهذا ، هذا يدل على انكم يا اهل توربان بخلاء . " صحيح ان المبلغ ليس كبيرا . ولكن هل تعرف كم تصبب العرق منى ومن والدى المسنين من اجل خمسين كيلوغراما من الزبيب ؟ هل تعرف ان الحرارة تصل فى توربان صيفا الى ٤٧ او ٤٨ درجة مئوية ؟ فمن اجل تربية عنقود من العنب ،كم يبذل والداى المسنان من الجهود ؟ كلما تذكرت ذلك ، ادركت السبب فى ارتفاع الاسعار لو بيع كيلوغرام الزبيب بعشرين او ثلاثين يوانا . لماذا تهز رأسك ؟ صحيح ، لم اسألك عن اسمك ولا موطنك . كفاية ، لنترك هذا الموضوع . لماذا اسأل عن ذلك . . .

اشتدت حماسة نياز مع حديثه فاستطرد قائلا :

– الطريق الى قوانغتشو طويل ، سيسير القطار ستة ايام بلياليها . اعتقد انك لن تنزل فى محطة شيآن . هذا جيد ، ليس فى هذه المقصورة الا نحن الاثنان ، تفضل ، لا تكليف بيننا ، تصرف كأنك فى بيتك . انا رجل صريح ، ستعرفنى جيدا تدريجيا.

— ٣ —

افترق نياز والشاب فى محطة قوانغتشو ، استمع الشاب فى القطار الى ثرثرة نياز وتناول كمية غير قليلة من مأكولات نياز ،

ولكنه لم يعرفه على اسمه . ولما وصل القطار الى المحطة استقبله شباب يرتدون مثل ما يرتدى ودعوه الى ركوب سيارة يابانية فاخرة . فالتفت الى نياز مبتسما ابتسامة خفيفة ، ورفع يده اليسرى فظهر الخاتم الذهبى متألقا فى اصبعه الناعمة اللينة . ومال نياز بجسمه واضعا يده على صدره . وكان كل شيء طبيعيا وعاديا .

تكاد مدينة قوانغتشو تنفجر من كثرة الناس . استقبل نياز ، هذا التوربانى ، الشوارع التى تغص بالبشر ليلا ونهارا ومصابيح النيون المتنوعة والغريبة الاشكال والازهار اليانعة المبهرة ووجوه التجار المألوفة وابتساماتهم . طلب نياز سيارة تاكسى اتجهت به الى منطقة سانيوانلى مخترقة الشوارع الجميلة ، وهو يعانى من الحرارة والرطوبة بعد المطر فى قوانغتشو ، ويمسح العرق المتصبب بلا انقطاع . لقد ترك وراءه ذلك الشاب صاحب الخاتم الذهبى ، وكأنما حين دخل القطار نسى توربان التى ينتشر فيها الغبار والتراب . والآن حان الوقت ليركز تفكيره على تجارته . هنا عالم من المتنوعات ، يعيش فيه المرء بالفطنة والذكاء ، فهو عالم يختلف عن الحقول التى يعيش المرء فيها معتمدا على قوته . ونياز اليوم ليس نياز القروى الاهوج الذى لا يعرف سوى ان يلتفت الى اليمين واليسار ، بل هو نياز التاجر الذى يستطيع ان يكسب ارباحا فى هذه المدينة الكبيرة . وكى يحقق هذا التحول عصر عقله وبذل كل جهده ليحفظ تلك الاسماء الغريبة والصعبة النطق للشوارع والازقة والمصانع ووحدات العمل والموانئ ومراكز المحافظات واسماء اولئك العاملين المتمرسين وارقام هواتفهم وكتاباتها الصينية ،

حتى انه تعلم عدة جمل من لهجة قوانغدونغ . سيمارس التجارة دون مساعدة ايشان ابتداء من غد . . .

كل شيء هنا كما هو لم يتغير ، فالشوارع مكتظة بالشباب من الجنسين ، يرتدون قمصانا بيضاء او ملابس غريبة الاشكال ، او ينشرون فوق رؤوسهم مظلات شمسية او يمشون اثنين اثنين جنبا الى جنب ويدا بيد . ويتحدث بعضهم الى بعض بصوت خفيف تحت المظلات او يقبلون بعضهم بعضا او يعبرون عما يجيش فى قلوبهم من الحب بجوانب مشاتل الازهار . اما فى الطابقين الرابع والخامس فى فنادق "جيشيانغ" و"بايين" و"بايبوى" ، فالتجار الفرديون ذوو الشعر الطويل والشوارب القصيرة صاعدون نازلون ، منشغلون داخل الفنادق او خارجها . ويبدو بعضهم فى فرح وسرور ، بينما يبدو على بعضهم الآخر الخذلان . وهناك من يتمشى فى الشوارع مرتاح البال ، وتحت ابطه ذراع امرأة ، ومن يتنقل بين مكتب البريد والفندق حاملا طرودا بريدية كبيرة وصغيرة ، ومن يعد كمية كبيرة من النقود الاجنبية ، ومن يصيح بصوت عال فى ممر الفندق ، ومن يهذى ربو يرتمى على سريره سكران ، ومن يخرج رأسه من سيارة التاكسى بعد ان قفز فيها ويوضح لعماله شيئا ما مشيرا بيديه ، ومن يلتف حول ذلك الطباخ من اهل مدينة ايلى طلبا للاكل والشراب .:.

كل شيء مثل ما رآه فى المرة السابقة الا ان ايشان وياكف قد اختفى لهما كل ظل . بدأت تفوح الرائحة النتنة من الحقائب التى جلبها لهما من توربان . توربان قد دخلت فصل الشتاء ،

ولكن الجو هنا دافئ كالربيع . اللحم المطهو فى الحقائب يفسد كله دون شك ، ولكن هذا ليس بالامر المهم بالنسبة لنياز ، فالاهم ان يتصل بمعارفه الذين عرفهم فى المرة السابقة حتى يعرف سعر الزبيب .

وفى اليوم التالى اتصل نياز بمستام البضائع فى التعاونية التموينية بمحافظة باوآن ، ولكنه لم يكن موجودا ، فأخبره مساعده خبرا سيئا يقول ان السوق قد نزلت فيها كمية كبيرة من الزبيب بسعر رخيص جدا ، الكيلوغرام الواحد اقل من ٦ يوانات . لذلك سنعيد اليك خمسة اطنان من الزبيب الذى اتفقنا على سعره ٧ر٨ يوانات للكيلوغرام الواحد . وضع نياز سماعة الهاتف ومسح العرق الذى تصبب عن جبينه ، ثم اتصل بمحافظة دونغوان ، فطرق اذنه صوت مألوف ، فارتسمت بسمة على شفتيه :

– كيف حالك ؟ وصلت الى قوانغتشو قبل ثلاثة ايام . ما ان تصل بضاعتى الى هنا بعد غد حتى اوصلها الى محافظتكم فورا . ماذا ؟ انخفض السعر ، لا يمكن ، لا يمكن ، قد وقعنا اتفاقية . . ماذا قلت ؟ تفضلون تعويض خسارتى على ان تشتروا بالسعر المتفق عليه ؟ كم ؟ الكيلوغرام الواحد بـ ٤ر٥ يوانات ! هل جننت ؟ اشتريته بستة يوانات فى توربان . . ماذا ، يمكننى ان اقدم شكوى الى المحكمة ؟

تجول نياز بسيارة التاكسى فى كل المخازن الكبيرة فى المدينة والمحافظات وعاد الى الفندق بعد المساء . يباع الزبيب فى كل مكان بسعر اقل من ستة يوانات . والزبيب الذى يباع فى السوق

ليس من الزبيب الاسترالى الاصفر ولا الزبيب التركى الاحمر الفاتن بل هو زبيب تورباني حقيقي . وعرف من احد التجار ان شركة تدعى "شركة تجارة منتجات شينجيانغ المحلية" قد جلبت كميات ضخمة من البضائع من شينجيانغ ، فامتلأت الاسواق فى مختلف المحافظات بمقاطعة قوانغدونغ بما جلبته هذه الشركة من صوف الغنم والفرو والفلفل والفواكه المجففة والزبيب . لقد جلبت ١٥٠ طنا من الزبيب ، وارسلتها الى مختلف المحافظات ، حيث يباع الكيلوغرام الواحد بـ ٣ر٥ يوانات ، فركد الزبيب فى ايدى التجار الصغار كلهم ، وفسدت كمية كبيرة منه فى شوارع قوانغتشو . . .

هل ستلقى عشرة اطنان من زبيب نياز نفس المصير المشؤوم ؟ لقد اشترت كل الوحدات التجارية الزبيب فى توربان بسعر ٨ر٥ يوانات ، فكيف تبيعه بسعر اقل من ذلك بعد ان دفعت تكاليف نقله الى قوانغتشو ؟ ماذا حدث ؟ من يتحمل مثل هذه الخسارة الفادحة ؟ ليس مهما ان يخسر نياز وحده ، ولكن ما ذنب اهل قريته الذين تمنوا له سفرا ميمونا وينتظرون عودته اليهم محملا بالارباح كي يحصلوا على نصيبهم منها ؟ من اين ظهرت هذه الشركة المشؤومة ؟ ما دام يمكنها ان تنقل ١٥٠ طنا من الزبيب الى هنا فى مرة واحدة وتبيعها بسعر اقل من سعر السوق فى مناطق انتاجه ، فمعنى ذلك انها اشترت الزبيب بالسعر الحكومى ، اى الكغم الواحد بـ ٧ر٣ يوانات . تتكلف محافظة توربان بشراء ١١٦٠ طنا من الزبيب فى السنة ويعني ذلك انه يمكن لهذه الشركة

ان تنقل كل ما فى مستودعات توربان الحكومية من الزبيب فى ١٠ مرات . اذن ، ما هذه الشركة التى لا تعرفها مصلحة التجارة الخارجية ولا تعرفها وحدات المنتجات المحلية ؟ ومن اين لها هذه القدرة الجبارة ؟

تقلب نياز فى سريره يفكر فى هذه الاسئلة التى لم يجد لها اجوبة . وظل طيلة الليل قلقا . وفى اليوم التالى وجد رأسه ثقيلا وليست لديه شهية . واتضح له ان ليس بمقدوره ان ينجو من الخسارة هذه المرة ، حتى ولو قدم شكوى الى المحكمة او طلب المعونات هنا وهناك . وكلما ازداد فى فهم هذه الحقيقة وجد هذه المدينة العظيمة غامضة غير قابلة للفهم .

استلم اليوم وثيقة الشحن التى ارسلتها اليه محطة القطار . ولكن اين توضع الاطنان العشرة من الزبيب ؟ اذا وضعت فى الفندق كانت التكاليف كبيرة تدهش الناس . واذا وضعت فى محطة القطار مؤقتا فعليه ان يدفع غرامة لو تجاوز الموعد المحدد . والمال الذى يحمله الآن ربما لا يكفى لدفع تكاليف النقل والشحن والتفريغ والحفظ . لقد انفق كل ماله فى شراء الزبيب ، لأنه كان يعتقد انه سيدفع كافة التكاليف من دخل بيع الزبيب بعد ان يصل الى قوانغتشو ، وكان العقد هو الضمانة لكل ذلك . لهذا قطع تذكرة فى عربة المقاعد اللينة فى القطار ، واستأجر سيارة تاكسى فاخرة بعد ان وصل الى قوانغتشو . ولكن العقد قد ألغى الآن ، فأصبح فى اشد الحاجة الى المساعدة للخروج من هذه الورطة . ولكن نياز عرف معرفة حقيقية فى المرة السابقة سلوك

تجار قوانغتشو فى تعاملهم مع الناس ، لهذا اصبح راغبا فى رؤية ايشان رغبة جامحة . لقد ترعرع مع ايشان منذ ايام الطفولة ، وايشان هو الذى دله على طريق التجارة ، فبدهى ان يهتم بالمشكلة التى يواجهها نياز لا سيما انه على معرفة جيدة به . اذن اين ايشان ؟

بعد ان استلم نياز وثيقة الشحن وقف فى القاعة الكبيرة يفرك يديه ويحك رأسه ، شأنه شأن نملة فوق قدر ساخن . فكر وقتا طويلا ، وتذكر فى النهاية مدير شركة الفواكه الشاب فى مدينة قوانغتشو الذى عرفه به ايشان ، فعزم على ان يذهب اليه .

بعد ان استمع المدير ذو النظارة ، صاحب الوجه المستدير المنتفخ والصوت الرفيع كصوت امرأة الى حكاية نياز ، اعرب عن تعاطفه معه . ثم اشار الى مستودع الشركة ومخزنها . فعرف نياز انهما وكل مستودعات فروع هذه الشركة مملوءة ببضائع تلك الشركة المشؤومة .

قال نياز للمدير وهو يمسك بيده :

— اطلب منك ان تساعدنى فى امر واحد فقط : ارجو ان تأخذنى لمقابلة مسؤول تلك الشركة .

قال المدير منشغل الذهن :

— هذا سهل ، ولكنهم لن يعدوك بشىء ، ولن يشتروا زبيبك بسعر اعلى من سعر السوق الحالى .

فقال نياز غاضبا :

— لا اطمع فى ان يشتروا زبيبى . افضل ان يفسد زبيبى كله على ان ابيعهم اياه . انها اريده ان يحكم بيننا .

قال المدير مبتسما :

— فهمت ذلك . يمكننى ان اساعدك .

توقفت السيارة التى اقلتهما امام فندق فاخر من ١٥ طابقا . وقال له المدير :

— مكتب الاتصال التابع لتلك الشركة فى الغرفة رقم ٧١٦ ، وهناك سيخبرونك اين مديرهم .

ثم ودعه فى اسف وغادر لحال سبيله .

سجل نياز اسمه فى مكتب الخدمات داخل الفندق ، فاتصلت احدى العاملات تلفونيا بصاحب الغرفة رقم ٧١٦ قائلة :

— تاجر زبيب ، اسمه نياز ، جاء من توربان .. ان .. ان .

ارتعش نياز غضبا من هذه الكلمات . اذ احس فيها اهانة شديدة له . وقال لنفسه : " زرعنا العنب بكل تعب ومشقة ، ثم نلقى مثل هذه المعاملة السيئة . " وفيما هو كذلك سمع العاملة تتكلم معه :

— يريدونك ان تصعد الى غرفتهم .

اشتد غضب نياز وشتم فى سريرته : " هؤلاء الخبثاء الذين ينثرون التراب فى صحون الفلاحين ثم يتصنعون فى مظهرهم وكلامهم كأنهم مسؤولون كبار يقابلوننى . لا شك انهم من البائسين المغامرين الذين ليس لديهم اى مبدأ ولا قانون الا بعض النقود الكريهة . ليرى الناس كيف ألقنهم درسا فى الادب ! "

صعد نياز الى الطابق السابع بالمصعد الكهربائى ، فوجد

الغرفة ٧١٦ فى ممر ضيق مظلم .

الغرفة رقم ٧١٦ ذات باب مزدوج . ضغط نياز على جرس الباب فانفتح تلقائيا . الغرفة مفروشة بالسجاد الاخضر السميك المنسوج بأشكال جميلة . والارائك والسرير الناعم لم يرها نياز من قبل . خرجت من الغرفة الداخلية امرأة فاتنة تزين نفسها بأحمر الشفاه والكحل وترسم حاجبيها رفيعين طويلين ، وتتمايل فى مشيتها . رمقت هذه المرأة نياز باحتقار ، ثم استدارت وجلست على احدى الارائك ، ووضعت ساقا على الاخرى وسألت بصوت رفيع لا يظهر الا فى افلام السينما :

— من تريد ؟

قال نياز غاضبا :

— هل المسؤول موجود ؟

فقالت المرأة مصدرة صوتها من انفها وزامة شفتيها :

— جاء واحد من اهل بلدك يا سيد يا .

خرج من الغرفة الداخلية شاب نحيف ، طويل القامة ، اشعث الشعر . فصاح نياز مدهوشا :

— ياكف ، هل انت مسؤول هذه الشركة ؟

— انت . . انت . . ألست الاخ نياز ؟ اتيت للعمل ؟

— طبعا ، والا لماذا اتيت . لا اريد ان ارى رأسك الاشعث الشعر . عندما كنت ترتمى فى احد شوارع قوانغتشو مثل نفايات الكلاب ، انقذتك انا نياز بمالى . هل تذكر ذلك ؟ انقذتك لأنى لا احب ان ارى اى فلاح مظلوما ، ولا احب ان ارى

العنب الذى زرعته يتلف . ولكن ماذا عملت اليوم ؟ ما ان تناولت الاكل حتى كسرت القدر ، ما ان عبرت النهر حتى هدمت الجسر .

ــ ماذا حدث لك يا اخى نياز ؟

ــ ماذا حدث ؟ هل تعرف انى قد وقعت مع محافظتى دونغوان وباوآن على عقد ؟

ــ اعرف . ولكن ماذا يهمنى ذلك ؟

ــ هل انت الذى تخرب هذا العقد ؟

ــ هذا ليس ذنبى ، انت تبيع بسعر غال ، وانا ابيع بسعر رخيص .

ــ ماذا تريد ايضا ؟ ان قلبك قلب ذئب وتصرفاتك تصرفات كلب . انك لتعرف انى قد وقعت على عقد مع الناس ، ولكنك تنكر الجميل من اجل مصالحك الذاتية ، وبعتنا الى تجار الصوف والفرو ، ثم علمتهم كيف يشترون الزبيب بثمن بخس من شينجيانغ . حصلت على وظيفتك هذه فى هذه الشركة الخبيثة معتمدا على بيعك لأصدقائك ، فأتيت اليوم لأحاسبك ايها السافل .

انقض نياز على ياكف وامسك به ، ثم احكم بيديه القويتين على عنق ياكف الرفيع الطويل ، فبدأ وجه ياكف يتحول من احمر الى احمر ضارب الى السواد ، فصاحت تلك " الآنسة المدللة " صارخة تطلب النجدة ، ثم خرجت مستغيثة تطلب العون من الآخرين .

اندفع الى الشقة عدة رجال ضخام الجثة ، وانهالوا على نياز

ضربا وركلا . وبينما هم يحاولون ان يشدوا وثاق نياز بحبل ، دخل شاب طويل الشعر يرتدى سترة غربية . عندما رأى نياز اسرع فى رفع يده اليسرى ، فلمع خاتم ذهبى فى اصبعه الناعمة . فعرفه نياز من نظرة واحدة . انه ذلك الشاب الذى كان معه فى نفس عربة المقاعد اللينة فى القطار . صاح احدهم :

– مدير مجلس الادارة ، ما رأيك فى ان نرسل هذا الوغد الى مكتب الامن ؟

– لا داعى الى ذلك .

اتجه الشاب الى نياز ووضع يديه على كتفيه وقال :

– انه صديقى التوربانى ، هو يزرع العنب ونحن نقوم بالتجارة . اطلقوا سراحه .

وقهقه الشاب ، ثم خرج .

عندما خرج نياز من تلك الغرفة قال لنفسه : " مدير مجلس الادارة هو المسؤول الاكبر فى هذه الشركة . وها انا ذا قد التقيت هنا مسؤول هذه الشركة الخبيثة ، ولكن ما اسم هذا الرجل الذى يبدو كمدمن الافيون ؟ "

فى حجرة الاستقبال فى ذلك الفندق عرف نياز من حارس البواب المسن اسم مدير مجلس الادارة وكان الثمن لذلك حقيبة بلاستيكية من الزبيب . وعرف ان ذلك المدير ابن احد المسؤولين ذوى السلطة والنفوذ . وبعد ان عرف اسم ذلك المسؤول الكبير فهم كل شىء على حقيقته .

ترك نياز ما يتعلق بالزبيب ، وانفق كل ما فى جيبه من النقود

فى تناول وجبة فى احد المطاعم . . وكان ما شغل تفكيره ليس الا ذلك المسؤول الكبير . كان ذلك المسؤول الكبير قد زار توربان وزار بيت نياز ، وتحدث هناك بكل ما يشرح القلب من كلام مثل : ليصبح الفلاحون اغنياء . . يجب مزاولة اعمال متنوعة وتطبيق روح وثائق لجنة الحزب المركزية على نحو حازم ، والاهتمام بانتاج العنب وتجارته بالنسبة لفلاحى توربان . . الخ . غير ان ابنه كسر صحن فلاحى توربان اليوم ونصب فخا فى طريقهم . هل يعرف هذا المسؤول هذه الاشياء ؟ واستغرق نياز فى التفكير ، فقد سمع ايضا ان هذه الشركة قد باعت كميات كبيرة من صوف الغنم والفرو . ألا يعرف هذا المسؤول الكبير ولو القليل عن هذه الامور ؟

عاد نياز الى الفندق فى وقت متأخر . وهناك وجد ايشان ينتظره منذ وقت طويل . فقال له ايشان بعد ان عرف حقيقة الامر :

– ماذا ستعمل ؟ ستخسر كثيرا لو ابديت لهم معارضة .

قال نياز غاضبا :

– سأضحى بكل ما عندى . لن اسمح لأى مخلوق بان يمتص دم الفلاحين مهما كان ، حتى ولو دخلت السجن .

بعد ان ارتوى من الشاى الثقيل ، عاد اليه رشده وطلب من ايشان ان يساعده فى بيع الزبيب . ولكن ايشان شكا كثيرا ، واعرب باستمرار عن عجزه ، فتوسل اليه نياز فى صدق وعيناه قد اغرورقتا بالدموع :

ـ اصبحت اليوم صاحب اموال فنسيت اخوانك الفلاحين ، وتجاهلتنا نحن الفقراء . ألم تصبح غنيا من تجارة الزبيب ؟ لكن الزبيب اصبح بخس الثمن لا قيمة له . واصبحت ثمرات عمل الفلاحين تدوسها الاقدام . اذا بقى لديك ذرة من الضمير ، فعليك ان تحقق الخير للفلاحين ولو كسبت اقل مما كنت تتوقع . من المعروف ان بينك وبين عدة مصانع عقود بيع ، فلا تحاول اخفاء ذلك عنى . انت لديك حل ، متر التيرلون يباع بستة يوانات ، ولكن يمكنك ان تشتريه بـ ٦ر٥ يوانات بشرط ان تطلب من كل مصنع شراء طنين من الزبيب بسعر ٧ر٥ يوانات للكغم الواحد ، يمكنك ان تفعل ذلك . لا تنس اخوانك مزارعى العنب ، فهم ربوك بعرقهم ودمائهم . ألا تعرف كم هى متعبة زراعة العنب ؟ ان شأن مزارعى الفواكه شأن النمل والنحل ، يعملون بلا انقطاع . تزرع غرسات العنب فى شهر مارس ، اذ يسوى الفلاح اغصان العنب واحدا بعد واحد ، ويغرسها فى تربة رخوة كالأم الحنون تضفر شعر ابنتها . اما من يحوز ولو قليلا من المعارف العلمية فيضع اغصان الكروم فوق العرائش . الفلاح ثاقب البصر ، يعرف الاغصان التى لم تقلم فى الخريف الماضى من نظرة واحدة . لا بد من تقليم الاغصان التى اثمرت فى السنة الماضية ، والا فلن تثمر فى السنة التالية . يسمى الفلاحون هذه العملية " ضرب الاغصان الخالية " . بعد ان تخرج اغصان الكروم من التربة يحفر الفلاح قناة بجانب جذور العنب ويخلخل التربة حولها كى تمتص الغذاء الكافى وترتوى من المياه . كل

هذه الاعمال دقيقة للغاية . ليس سوى مزارعى الفواكه هم الذين ينجزون هذه العملية . ان حالتهم مثل ام تربى طفلها .

جنى العنب اكثر تعبا ودقة . فهو يختلف عن جنى البطيخ والشمام ، كما يختلف عن حصاد القمح ، بل لا بد من جنيه عنقودا عنقودا . العنب الذى سيباع طازجا يوضع فى مكان ، والذى يحتاج الى التجفيف ينقل الى غرفة التجفيف . الذى يباع طازجا امره سهل لا يحتاج الا الى وزن . اما تجفيف العنب فهو ليس سهلا . يعلق على كل عارضة خشبية نحو ١٥٠ كيلوغراما من العنب ، وعلى كل عارضة ٦ مجموعات من الصنارات الكبيرة ، ويعلق العنب عنقودا عنقودا مثل تطريز الازهار ابرة ابرة . وفى اواخر شهر اكتوبر تنزل اغصان الكروم من العرائش ، ثم تدفن فى تربة غير جافة ، وغير مبللة كثيرا واحدا تلو الآخر ، كأم تنوم طفلها . كم مجرفة من التراب يحتاج اليها دفن اغصان الكرم ! هذا العمل ادق من بناء السنونو عشه بالطين . بعد عملية الدفن لا بد ان يثبت الفلاح هذا التراب بضغط قدميه حتى يصبح مربع الشكل مثل القبعة التوربانية الملونة . وهكذا تنتهى اعمال السنة .

فكر جيدا يا صديقى ، يملك الفلاح ٤٠ او ٥٠ غرسة من الكرمة على الاكثر ، يبذل كل وقته وقوته وذكائه فى زراعة العنب طول الصيف ، وفى نفس الوقت يعلق آماله وافراحه على العنب ايضا . ولكن كم من الخير والسعادة يجنى منه ؟ عدة آلاف من اليوانات او عشرة آلاف يوان على الاكثر ، وهناك من يحصل على مئات اليوانات فقط او اقل من ذلك . ان فلاحى توربان يشترون الحبوب

الغذائية بالنقود ، وعليهم كذلك ان يدفعوا النقود لشراء الاسمدة وتكاليف المياه واعتمادات المصالح العامة . يبدو ان مثل هذه الحال لا يمكنها ان تتغير فى وقت قريب .

اومن ان الناس يحصلون على جزاء مناسب لأعمالهم حسب ما يبذلون من جهد ان عاجلا او آجلا . يناضل الناس اليوم فى سبيل تحقيق هذا الهدف . ولذات الهدف ، اتينا الى قوانغتشو لبيع الزبيب لنكسب نقودا اكثر . كلما رأيت اولئك الذين يقيمون فى سانيوانلى او يلازمون فندق بايبوى فى مدينة قوانغتشو التى يزدحم فيها الناس ، ويكسبون عدة آلاف من اليوانات فى يوم واحد ، تذكرت الاشقاء الفلاحين الذين تلسعهم اشعة الشمس وتلفحهم الرياح ويلوثهم الطين والتراب شهورا وسنين فى توربان ، ودخلهم السنوى اقل مما يكسبه هؤلاء فى يوم واحد . الفرق بينهم كالفرق بين الثرى والثريا . الفلاحون هناك يعملون بلا انقطاع ، والذين هنا يستمتعون بكل ما تهواه قلوبهم . دخل العمل المجد قليل جدا ، والغارق فى المتعة دخله كثير . هذا فرق شاسع . اما انا فبين هذين الطرفين ، يجذبني كلاهما ، ولا اريد ان اترك ايا منهما . ولكن ثمة امر واحد لا افهمه ، الا وهو ان المرء يبزغ نجمه او يأفل معتمدا على ذكائه وقوته واخلاقه او معتمدا على الحظ والفرصة ؟ لماذا عندما يجد المرء ويجتهد لا يحصل حتى على رغيف واحد . امثال ياكف كدنان الخمر واكياس الرز ، ولكن جيوبهم منفوخة بالمال . يا صديقى القديم ، هناك غير قليل من الفلاحين لا يمكنهم ان يحصلوا على رغيف كامل ، فعليك ان

تعيرهم شيئا من تفكيرك .

انهمر هذا التعليق الطويل على لسان نياز بانفعال ، واخذ يبكى بكاء مرا ، مما جعل قلب ايشان يلين . الكلام الطويل الذى نبع من اعماق قلب نياز حمل ايشان الى بلده الذى خلفه وراءه ، كأن ريحا حارة فى صيف توربان تلفح وجهه مرة ثانية ، وكأن انفه يشم رائحة ثمرات التوت التى تفوح من البساتين اليانعة ، فرأى اولئك الفلاحين المجتهدين الطيبين فى موطنه . كان قد ترعرع حافى القدمين فى تلك القرية التى تجرى فيها الجداول الرقراقة، ويثور فيها الغبار . ربما يجلس والده الآن على ذلك السرير الطوبى فى تلك الغرفة الملوثة بالدخان الاسود مدليا قدميه وهو فى شوق شديد الى ابنه .

حنى ايشان رأسه رويدا رويدا ، بينما مال نياز على كتفه وهو يبكى بكاء مؤلما . . .

اقام ايشان فى غرفة نياز فى تلك الليلة .

وبعد ثلاثة ايام ودع نياز قوانغتشو . فأوصله ايشان الى محطة للقطار وقال له وهو يمسك بيده :

ـ من اجل ترويج زبيبك ، خسرت الف يوان فى هذه المرة . وبعته بصعوبة كبيرة . لا تأت الى هنا فيما بعد ، فلن استطيع مساعدتك .

هز نياز يده بقوة وقال :

ـ لا تقل كلاما يثبط العزيمة ، فانى عازم على ان اتحداهم . اقاموا شركة ، فلماذا لا يمكننا ان نقيم شركة ؟ بعد ان اعود لا بد

ان اكتشف السوق التى تزودهم بالبضائع بأسعار رخيصة ، صدقنى يا ايشان ، لا بد ان اسد الطريق فى وجوههم ليقعوا فى الفخ الذى نصبوه . انتظر وانظر من هو الغالب فى النهاية .

تحرك القطار فضم نياز ٧٦٫٠٠٠ يوان من النقود حصل عليها من بيع الزبيب الى صدره بقوة وقال مخاطبا نفسه :

ــ ان ما نعتمد عليه هى الارض ، الارض ستقهر كل شىء . . .

ان لديه الآن نقودا ، لكنه يحتاج الى تأييد صادق .

وتعبيرا عن تأييد كاتب هذه القصة لنياز اهداه العبارة التالية :

"شد همتك يا توربانى ! "

كلمة عن المؤلف



ذوردون صابر من قومية الويغور ، ولد فى محافظة يينيغ بشينجيانغ عام ١٩٣٧ ، وتخرج فى معهد الاقليات القومية للشمال الغربى فى مدينة لانتشو . بدأ ابداعه الادبى عام ١٩٦١ ، نشر اربع روايات وعشر قصص متوسطة الحجم واكثر من ثمانين قصة قصيرة . وفازت اعماله بجائزتين ادبيتين وطنيتين للاقليات القومية . وهو عضو فى اتحاد الكتاب الصينيين ، ويشتغل الآن متفرغا للابداع الادبى فى فرع اتحاد الكتاب الصينيين بشينجيانغ .

قلوب الاصدقاء

بقلم : غلازخان احمد من قومية القازاق

— ١ —

انطلقت سيارة جيب على الطريق الاخضر الممتد مع سفح الجبل ، يجلس فيها ثلاثة رجال ما عدا السائق . اولهم محافظ انتخب فى الخريف الماضى ، يدعى دوسجيان ، وهو شاب ضخم الجسم زعفرانى البشرة . وثانيهم مدير هيئة تربية المواشى التابعة للمحافظة ، يسمى كايقمو ، وهو رجل اسمر ذو شعر ابيض . اما ثالثهم فهو مشرف على الشؤون الادارية لهيئات حكومة المحافظة ، اسمه ايليان ، وهو من اتراب كايقمو ، سمين اصفر البشرة . انهم رجال اقوياء يعرفهم القاصى والدانى فى المحافظة ، ويثق بهم اناس ويجلهم الآخرون . لقد صار من عادتهم ان يترافقوا فى رحلات مثل رحلتهم اليوم ، ولعل ذلك يرجع الى ان كلا منهم يتفهم قيمة الآخر واهميته . وعلى الرغم من ان بعض الناس يدعو من وراء ظهرهم عملهم هذا "التعاون التام" ، الا ان معظم الجماهير يقيمونه على انه اتحاد كامل لا تشوبه شائبة ، ويتابعونه باهتمام شديد .

يلتقون اليوم للذهاب الى الجبل لقضاء يوم الاحد ، لكن لم تبد على ملامحهم اى علامة من علائم السرور ، بل كانوا متجهمى الوجوه معقودى الالسنة ولا سيما المحافظ دوسجيان الذى اثقله الهم والغم فبدا كأنه مريض ، وظل مطرقا رأسه لساعات طويلة مسترسلا فى التفكير . واخيرا شق كايقمو ذلك الصمت الذى كاد يخنقه ، فقد كان مضطربا يفتح النافذة حينا ويعبث بطراحة المقعد حينا آخر . وعندما اقتربت السيارة من انف الجبل لم يعد يتحملِ الصمت ، فمال بجسمه الى المحافظ وقال له :

ــ الرفيق المحافظ !

لم يرد دوسجيان عليه ، وبقى مسرحا نظره بعيدا عبر زجاج النافذة ، ذلك اما لأنه لم يسمع نداءه واما لأنه نسى تماما تلك التسمية الكريمة ــ حضرة المحافظ التى ينفرد بها .

اوقعه موقف دوسجيان فى حرج شديد ، فارتبك ارتباكا كبيرا مثل العصفور الذى هبط على كومة من العشب ، فأخذ وجهه يحمر حينا ويصفر حينا آخر ، ثم عاد يقول بصوت خفيض :

ــ الرفيق المحافظ !

التفت دوسجيان اليه فى برود ، وقال بصوت فيه شىء ينم عن اللوم :

ــ ماذا قلتم ؟

دهش كايقمو لما ابداه المحافظ من انزعاج غريب ، ولم يسعه الا ان يطرف بعينيه ويضحك ضحكات فاترة . لكنه لم يرد ان يقف عند هذا الحد ، فقد خيل اليه انه يجب ان يقول

شيئا يرضى رئيسه المحافظ ، لذا استجمع جرأته وقال برقة واطف :

— اين نذهب اولا ؟ نذهب الى بيت رئيس المرعى توكتاس ؟

— بل الى بيت حسن .

— وبعد ذلك ؟

اجاب دوسجيان وهو يضحك ضحكة سخرية :

— نعود . فليس من الضرورى ان نطوف فى جميع مراعى عووله لأننا لسنا عجائز يتجولن فى الخيام كل يوم .

— صحيح .

واصل كايقمو كلامه فى حذر محاولا سبر غور ما فى نفس المحافظ .

— ولكنى اتصلت هاتفيا برئيس المرعى توكتاس اول امس واخبرته بأنك ستأتى الى الجبل . فسرت زوجته سرورا كبيرا كأنها انجبت ابنا ، وقالت لى بصوت عال : " انا سأدعو المحافظ بنفسى الى بيتى ! "

فهز دوسجيان رأسه قائلا :

— تصرفكم هذا غير مستحسن .. استعداداتهم ستذهب سدى ، أليس كذلك ؟

— بلى ، كذلك .

تنهد كايقمو ، وبدا كأنه ندم على ما فعله ، ولكنه لف ودار ليعود الى طلبه الاول فقال :

— ولكن قد يغضب ذلك الرجل . انه مسكين ، قلبه على لسانه .. لا لوم عليه . فما فعل اكثر من ان يذكركم بكلمات

طيبة . علينا ان نعرج عليه دقيقة واحدة حتى ولو لم يكن لديكم وقت ، وتتعرف على اعمال مرعاه وتعطيه بعض التوجيهات ، وهذا سيشكل بلا شك تأييدا قويا له سيطير به فرحا .

اكفهرت ملامح دوسجيان ، ونظر الى كايقمو فى كآبة وقال :

— يا اكساكرى ، * لم آت للتعرف على الاحوال ولا لأملى التوجيهات ، وانما جئت لأمورى الشخصية . والى جانب ذلك سأذهب غدا الى مدينة اورومتشى لحضور الاجتماع ، فمن اين لى وقت ومزاج للتنزه .. لن يغضب صديقك . وان غضب يمكنك ان تشرح له السبب ، وفيما بعد سأفرد له زيارة خاصة .

ثم ادار وجهه نحو النافذة .

كان كايقمو مثل ولد الناقة لا يدرك الاتجاه ، وقد انتهكت قوته بتصرفات قائده ، ولكنه لم يرض عن ترك المحاولة ، وفى نفسه لم يجد كلمة مناسبة ولا حجة مقنعة ، فوقع فى حرج شديد . ولطلب المساعدة والتخلص من هذا الحرج وجه نظره الى ايليان الجالس بجانبه ، لكن سرعان ما خاب امله لأن ايليان كان قد استغرق فى نومه بفعل اهتزازات السيارة ، فمال برأسه — وهو كبير مثل قدر — الى صدره ، وراح ينفث الهواء من فمه نحو الاعلى كأنه يحاول طرد ذبابة هابطة على ارنبة انفه ، ويصدر شخيرا خفيفا . حملق كايقمو الى وجهه فى اشمئزاز ، وتنهد فى خيبة امل وقطب جبينه .

---

* اكساكرى هو لقب يطلق على الشيخ الجليل ذى السمعة الطيبة .

انتاب دوسجيان انزعاج فقال فى نفسه : " هاى ، لن يفوت هؤلاء المتملقون اية فرصة للتزلف . ما السبب الذى تردى بهم الى هذا الحضيض ؟ ربما كان التماق مهنة ضرورية من اجل البقاء فى تلك السنوات الماضية ، اما اليوم فما فائدته ؟ ألم يحن الوقت لصد هذا الوباء واستئصاله !

نعم ، لو اصيب كايقمو وحده بهذا الوباء لما اعار الامر اهتماما . ولكن عندما امعن النظر فى واقع المجتمع ، لم يتعسر عليه ان يجد كثيرا من الشخصيات ذوى المعرفة الواسعة لم يحصلوا على المناعة ضد هذا الوباء ، ومنهم ايليان هذا الذى لا هم لديه ولا غم . لقد اشتغل مشرفا على الشؤون الادارية لحكومة المحافظة اكثر من عشر سنوات ، ولم يضعف حتى اليوم احساسه المرهف فى تفحص كلمات رئيسه وتعابيره . وخلال سنة واحدة بعد ان عين دوسجيان محافظا تسابق ايليان وكايقمو فى التردد اليه ، فدعاه كل منهما الى المأدبة سبع او ثمانى مرات . ومنذ ايام مضت انتهز ايليان فرصة تغلغل كايقمو الى المراعى فذبح خروفا سمينا معدا للغذاء الشتوى واقام فى بيته مأدبة تكريما لدوسجيان واسرته ، وبذلك سبق ايليان كايقمو فى تكريم المحافظ الجديد . . .

لقد تعب دوسجيان كثيرا من حضور هذه المآدب ، ولكن لم يتعبه احد هذا التعب مثل هذين الرجلين . ان المآدب الكثيرة احدثت له متاعب جمة ، وبرغم ذلك لم يجد بدا من ان ينزل الى بيوتهم ضيفا متكافا سهولة العشرة . كان يلتزم بمبدأ حضور المأدبة بمفرده كيلا يترك اثرا سيئا بين الجماهير . ولكن النتيجة

اتت دائما على عكس ارادته . فكان كايقمو وايليان يتفاخران بقوة علاقتهما بالمحافظ الجديد . فأيهما يدعه الى المأدبة يدع ايضا فى كل مرة جميع الرؤساء والمديرين على مختلف المستويات فى المحافظة كندماء له من اجل اكرامه ، وذلك ادعى الى ازعاجه . لقد صار يتردد ، وان كان مضطرا ، الى حضور مناسبات حافلة . كل يوم يعود الى بيته مساء من اعماله الرسمية فيجد بطاقات الدعوة مكلسة . وهكذا تمضى الايام وهذا المحافظ الجديد يعيش فى قلق ، يشعر بدوار ولا يتذوق طعم الهدوء والراحة .

هل من انسان فى الدنيا يستطيع ان يخالف القواعد المألوفة ؟ كان من الصعب جدا على دوسجيان ان يتهرب من بعض الدعوات المدعمة بالحجج القوية . فهذا قال : " ارجو ان تتكرموا بتحقيق امنيتنا الجميلة ! " وذلك قال : " نتشرف بالتعرف على ضيفنا الكريم ! " لقد وصل الامر الى ان كل مناسبة سعيدة او حفلة مباركة لا يمكن اقامتها فى هذه المدينة الجبلية الا بحضور دوسجيان ، وان لم يحضر يخالج الناس قاق وارتباك . واذا قبل دعوات كايقمو وايليان دون دعوات الآخرين ، اوقع اولئك الآخرين فى حرج ، وسرت اشاعات من شأنها الاضرار بالوحدة بين الكوادر ، الامر الذى اضطره الى قبول كل دعوة وحضور كل مناسبة ، بيد انه فى بعض الاحيان تنتابه سورة من الغضب على هذين الرجلين وما وضعا له من ترتيبات ، فخطرت بباله خاطرة : " لن اخبط خبط عشواء وراءهما بعد اليوم . " ثم صارت هذه الخاطرة بينة مع مرور الايام ، فأخذ يبتعد عنهما ، يرد على تحياتهما او

اسئلتهما ببساطة وفتور وينصرف الى شأنه على عجل . . لقد تعمد اتخاذ هذا الموقف من اجل تنبيههما . غير ان موقفه لم يترك اى اثر فى قلبيهما ، بل اعتبراه شرفا خاصا بهما . فازدادا لطفا وتوددا وتبعية . فكان مهموم الفؤاد ، ورجهاهما باسمان . وكان يتصنع الخيلاء ، وهما يرضيان بالسمع والطاعة . فهل فى مقدوره ان يفعل اكثر من هذا ؟ !

واذا ابتسم ايليان وقال باهتمام وعناية : " يا حضرة المحافظ ، هل تشعر بشيء من انحراف المزاج ؟ يبدو وجهكم شاحبا ! " فان كايقمو سيأتى اليه بكل خشوع ، ويقول له بابهجة ألطف وارق : " هل عندكم اعمال تعهدون بها الينا وتعليمات تملونها علينا ؟ " وفوق ذلك قدموا الخدمات الى بيته بغية اظهار علاقاتهم الوثيقة بالمحافظ . وتذكر على سبيل المثال ان ايليان قد ارسل فى الشتاء الماضى مائتى يوان الى بيت المحافظ باسم " علاوة معيشية " خلال سفره لحضور اجتماع الاقليم . وابى كايقمو ان يتخلف عن زميله ، فأرسل الى بيت المحافظ خرافا سمينة تحت اسم " عناية خاصة " . ولما عاد دوسجيان الى بيته من الاجتماع الذى استغرق نصف شهر ، وعرف قصة " العنايات " ضاق صدره بها ، واصبح على احر من الجمر . فاستدعى هذين الرجلين الى بيته فورا ليرد كل " العنايات " اليهما فى سخط ، فاستبد بهما الخجل حتى اعترفا بأخطائهما ضمنيا ثم قال لهما :

— لا تفعلا ذلك مرة ثانية .

ثم اخذ مزاجه يصفو . ولكن هذا الصفو لم يدم زمنا طويلا ،

اذ ان هؤلاء رجال مجربون عاداتهم القديمة لا تتغير بسهولة . فلم يمض شهر واحد حتى تمكنوا من فتح طريق اخرى للتملق وهى ان يعتبر كل واحد منهم كلمات النقد اللاذعة التى وجهها المحافظ ، نصائح غالية يستنبط منها معانى مقنعة فينشرها بين الجماهير . ثم لا يحصرون هذه الدعاية فيمن حولهم ، بل يستهدفون احداث آثار اكثر عمقا واتساعا . ولتحقيق هذا الغرض يجندون اولا الجرائد المحلية الموثوقة لتنشر فى ابرز مواقعها مقالات تستفيض فى بيان الاسلوب الحميد الذى يمتاز به المحافظ الجديد ، وتثنى ثناء عاطرا من مختلف الزوايا على عمله وخلقه . واليك مثلا " شجاع فى الممارسة ، طليعى فى الكفاح" و" حازم فى رفض الهدايا " . . الخ ، بمعنى ان المحافظ الجديد يستوفى جميع القواعد الاساسية المتبعة حاليا فى تقييم الكوادر . حين قرأ دوسجيان هذه المقالات انتابه خجل شديد ، وقال فى نفسه : " لم يمض على استلامى هذا المنصب عدة اشهر حتى بالغوا بهذه الوقاحة فى الثناء على انجازاتى العظيمة المزعومة . . يا للعار ! من المؤكد ان الجماهير ستظن ان هذه المقالات صدرت بايحاء منى انا ! " وعندما فكر دوسجيان فى ذلك احس بغصة فى حلقه لم يستسغ معها الطعام ولا الشراب . ومن ثم فقد شجاعته لفترة طويلة فى ان يسير مرفوع الرأس .

منذ ذلك الوقت صار اصعب ما عليه هو ان يبتعد عنهما . وبالرغم من انه لجأ الى كل تملص وكل مواربة ، الا ان كايقمو وايليان ظلا يلازمانه ملازمة الظل بحجج ووسائل فعالة . ومن امثال

ذلك انهما اليوم التصقا به ليأتيا معه الى الجبل . وفى الاصل لم يفكر دوسجيان فى استصحابهما . وكل ما فعله انه طلب اول امس من ايليان ان يحجز له سيارة توصله الى بيت صديقه حسن فى مرعى كراسو ، كما انه شرح لايليان بوضوح انه سيذهب وحده ولأمر شخصى ، فوافق الاخير على طلبه ، لكن ما العمل ؟ ان ايليان وكايقمو قد اتيا معه فى سيارة واحدة بحجة انهم جميعا فى طريق واحد وان عليهما ان يزورا توكتاس لأمر ما . كلما ذكر اسم توكتاس ، تكدر صفو دوسجيان . ان توكتاس هذا فى نظر تشانغ امين لجنة الحزب الشيوعى فى المحافظة — كادر ماهر ذو كفاءة وجرأة وحزم . وعلى الرغم من ان الجماهير فى المرعى قد أطلعت الهيئة العليا على انحرافات توكتاس فى اسلوب العمل ومجال الاقتصاد ، وان بعض المسؤولين قد اقترح فى جلسة ادارة المحافظة عزله من منصب امين لجنة الحزب الشيوعى فى مرعى كراسو ونقله الى خارج المرعى ، الا ان الامين تشانغ تشبث برأيه بصرف النظر عن ملاحظات المجتمعين ، وحماه بأقصى جهوده من ان يعزل من منصبه الرابح . وبما ان كايقمو وايليان قد اعربا لدوسجيان امس عن رجائهما فى ركوب سيارته ، ولم يرد عليهما بنعم او لا ، فانهما جاءا سويا اليه بالسيارة عند الفجر . ولما رآهما تكور مثل القنفذ لتقزز منهما ولعلمه بأنه لا يقدر على التخلص منهما لأنهما كادران قياديان ذوا تأثيرات واسعة حميدة كانت او سيئة ، ولم يسعه الا ان يتسامح معهما فى بعض تقصيراتهما مراعاة لمشاعرهما ومن اجل تعزيز التضامن بينهم.

كثر فى الوقت الحاضر من بين الرفاق الكوادر من يقدر على التعاون مع كل رجل ، سواء أ كان مؤيدا له ام معارضا . وهؤلاء الكوادر يضمرون فى نفوسهم انزعاجات ، ولكن لا يظهرونها للناس بل يعاملونهم دائما بلطف ومودة ، فهل هؤلاء الكوادر يستحقون لقب النماذج فى التضامن والوحدة ؟ ان لم يستوعب دوسجيان سر وجوهر فن القيادة من هذا النوع استيعابا تاما ، فقد اخذ من هذه "المعرفة" طرفا ، ولذا قبل تصرف زميليه كايقمو وايليان فى صمت على حين اضمر فى نفسه انزعاجا وسخطا .

ومنذ انطلاق السيارة ظل منشغل البال يفكر فيما يحتمل ان يجلبا عليه من متاعب . ان لقاق دوسجيان اساسا بالفعل ، فمن الواضح ان كايقمو قد اوصل الى توكتاس خبر زيارة المحافظ للجبل . . كيف يتخلص الآن دوسجيان من الترتيبات التى وضعها كايقمو وايليان من ورائه ؟ عندما وصل تفكيره الى هذه النقطة لم يتمالك نفسه عن التبسم . أيكون هو المسؤول عن ذنبه بسبب خضوعه لرغبة الآخرين ؟ وجملة القول انه اغتاظ كثيرا لوقوعه فيما لم يرض به من امور . ومن اجل التخلص من هذه الغم ادار نظره نحو السهول الخضراء الممتدة خارج السيارة .

ان الارض ام تربى اجيالا واجيالا . وايام مايو جميلة ، لا حر فيها ولا برد ، ومباهج الربيع تغمر الدنيا فى الصباح الصافى اللطيف . لقد تفتحت الازاهير بألوانها الزاهية ، وقد دهش دوسجيان عندما لاحظ ان تلك الاعشاب والازهار تحافظ على حيويتها الشديدة

برغم تعرضها للدوس . قطعان من البقر والغنم تخور وتثغو وتتراكض فرحة على البساط الاخضر كأنها اولاد يطيرون فرحا عند تلقى الهدايا ؛ والعنزات تثغو وتجرى بحثا عن جدائها ، والطيور تحلق وتصطاد الحشرات لافراخها . كل هذه تبدو كأنها تكافح بهمة وقوة للدفاع عما وهبتها اياه الحياة ، ولترك الحياة تشتعل نارها الى الابد . "آه ، ما اجمل المروج !" تنفس دوسجيان تنفسا عميقا . ربما بسبب ان هذه اول مرة يدخل فيها دوسجيان الى مرعى الجبل منذ حاول الربيع ، لذلك احس بأن هذه المروج التى عرفها معرفة جيدة منذ وقت طويل تظهر فى ألوان زاهية ، وتكشف عن اسرارها الجديدة وان الاضواء المنعكسة من البخار فوق الجبل والسهول الواسعة الارجاء هى التى تغير ألوان المروج ، وتكشف اسرارها وتتلاعب بأوتار القلوب . انفعل دوسجيان اشد الانفعال ، ولم يبتعد نظره عن المروج ولو لحظة واحدة ، وكان يستند الى النافذة بذراعيه ويستنشق بنهم عطر الاعشاب الفواح . "

كم من شتاء بارد وصيف حار قضاها دوسجيان فى هذه المنطقة ! لقد تمتع بأيام جميلة بهيجة فى المروج ، كما عانى فيها من الثلوج والعواصف ، وكانت له ايام فرح وسعادة وايام غم واسى . فى تلك السنوات اصبح كل شىء لا يحمل اى معنى بالنسبة اليه ، اما الآن فقد اختلف كليا عما كان عليه ، انه مثل الناس الذين يعيشون فى المروج قد حصل على نصيبه الذى اهدته اياه الحياة . ولقد قدم خدماته من اجل الوطن ، وتزوج وانجب ، وصاحب عددا من الاصدقاء الاوفياء ، وتعلم المعارف والعلوم .

واليوم عاد يسير على هذا الطريق من اجل زيارة اصدقائه هؤلاء .

الحياة عجيبة فعلا ! كانت الاعباء ثقيلة تحنى ظهرك ، فلما ازيلت من عاتقك ، نسيتها بسرعة . وبعد فترة تتذكرها من جديد ، كأنك تستعيد الامور الطريفة . ها هو ذا دوسجيان يتذكر ما مر به من الامور بلذة بالغة وانشراح صدر .

مرت به سريعا اجرف الجبل والاودية التى كثيرا ما قطعها ماشيا على قدميه او ممتطيا صهوة حصانه وعلى كتفه حقيبة طبية . كما مرت به منحدرات المروج التى كان يرعى قطيع الاغنام فيها ، وينابيع الجبل التى كان يردها قطيعه ويصدر عنها . انظر ، أليس هذا دربا سلكه مقيد اليدين تحت حراسة من رجال الميليشيا او سلكه هو وصديقه حسن فى ليلة داكنة ممطرة بعد ان انقذه من السجن الذى انشأه الحرس الاحمر ؟ كان دوسجيان فى شبه اغماء يتبين هذا الدرب على نحو تقديرى لا بعينيه ، وتنهمر دموعه السخينة حزنا واسى . لقد يئس من حياته تماما كأنما ودع بلدته العزيزة الوداع الاخير . لكنه لم يمت . وبعد ان شفى من جروحه استعاد صحته ونشاطه ، اتى هو وحسن مرات كثيرة الى ذلك الدرب سرا ، يستشعران سعادة النجاة . انقضى الزمن وانقضت معه حوادثه وذكريات الناس ، ومع ذلك لن ينسى هذا الدرب بوصفه دليلا على حوادث تاريخية . فكلما سار عليه عاد الى ذهنه فورا كل ما حدث له فيتأثر غاية التأثر بالذكريات الخالية . لكن كل هذا قد يضايق من حوله فى بعض الاحيان ويكسو زهرة " التضامن " المقدس طبقة من الغبار .

ـ ٢ ـ

وصلت السيارة قريبا من بيت حسن وهو خيمة من اللباد .

امتد درب بين الاعشاب الخضراء الكثيفة الى قمة منحدر بعيد كأنه احبولة خيل طوياة رماها للراعي . وبالرغم من انه درب صغير لا يستحق الذكر الا انه عزيز على دوسجيان ، فكم من مرة سار مع زوجته العزيزة عليه جنبا الى جنب ، واقام الرعاة الاولاد هناك مسابقات العجول !

احس دوسجيان اليوم بما لم يحس به من قبل : تدفق الى ذهنه سيل من الاحداث الماضية واستدعى ذكريات كثيرة . فجر ينبوع عواطفه ، وصب كل حماسته ومحبته لاصدقائه القدامى والمروج الحبيبة ، ايتها المروج العزيزة ، يا امى الحنون . . صارفى تأثر ، فسارع الى مسح الدموع من عينيه متظاهرا بالتثاؤب ، ثم ادار وجهه الى السائق وقال :

ـ در نحو هذه الجهة . . هذه الجهة !

انعطفت السيارة انعطافا سريعا ، وخرجت عن الدرب لتمر من بين قطيع الاغنام المنتشرة على المنحدر الاخضر قاصدة قمة المنحدر ، فعرف دوسجيان من الاوتاد الحمراء ان تلك الاغنام الثاغية من القطيع الذى يملكه حسن ، فقال مسرورا :

ـ ما اقوى هذه الاغنام ! كل شاة سمينة مكتنزة لا تكاد تتحرك !

حسن راع قوى العزيمة ، يتقن فن الرعي . ففى اى وقت من

الاوقات تنمو بهائمه نموا سريعا ، وتسمن وتكتنز قبل حلول الموسم .
ومن الغريب انه لم يحصل بهذه النتائج البارزة على اى تقدير تشجيعى من القيادة ، وانه لم يفتخر بها ولو مرة واحدة . فراح الناس يتهامسون فى امره ، لكنه لم يفكر قط فى هذا الموضوع ، بل اكتفى ببسمة لطيفة فنال بخلقه هذا اعجاب دوسجيان وتقديره .
وبرغم انه اكبر من دوسجيان بخمس او ست سنوات ، لكنهما اصبحا مثل تربين عزيزين . وحسن هذا بارع فى التفكير مع سذاجته وبطء فهمه وعارف بتقييم الناس على اختلاف طبائعهم .
لقد قال مبتسما لدوسجيان منذ ثلاث سنوات ، اى قبيل اعادته الى عمله فى المحطة البيطرية التابعة للمحافظة :
– يا دوسجيان ، لقد عرفت كثيرا من الكوادر استطاعوا ان يعتنوا بالجماهير ويختلطوا بهم عندما كانت مناصبهم صغيرة اوواجهتهم مشكلات ، ولكن حالما اعتلوا المناصب الكبيرة صاروا متغطرسين مترفعين عن الناس ، وانا اخاف عليك ان تصبح فى عدادهم .
ثار دوسجيان غضبا من كلامه وقال :
– هل تعتقد انى سأكون غادرا ؟ لن اصبح غادرا على الاطلاق حتى ولو تبوأت منصبا رسميا .
فهز حسن رأسه بين الشك واليقين .
صحيح ، أليس دوسجيان هذا يعاق نفسه الآن على درجة المنصب الكبير ؟ لكنه ليس رجلا وقحا قليل الحياء يتيسر عليه ان ينسى الصداقة الماضية والاصدقاء القدماء ، وقدومه اليوم سيدل

على ذلك . كما ان حسنا سوف لا يجد بدا من الاعتراف به .
فعندما يراه قادما سيخرج من خيمته جاريا على قدميه الحافيتين
صائحا مسرورا : " عرفت انك ستأتي ! عرفت منذ وقت طويل . .
دوسجيان ليس بأحمق بادى المظاهر البيروقراطية. "

حدث ذات يوم ان اتى حسن الى مركز المحافظة لدعوة دوسجيان وزوجته لحضور حفلة زفاف ابنه ، فصادف فى بيت دوسجيان مأدبة لاكرام الضيوف ، فقالت السيدة له :

– يا اخى لا تنصرف واجلس معنا الى المأدبة التى نعدها اليوم لتكريم الضيوف .

لكنه اعتذر وقال :

– كيف يليق بى ان اجالس انا المواطن العادى مع الموظفين الرسميين على مائدة واحدة ؟ انى منصرف حالا . ولا اريد ان يضحكوا على .

اثار هذا الامر غضبا شديدا لدى دوسجيان ، ولبث ينتظر فرصة لنقده فلم تتح له حتى اليوم . واليوم رغب دوسجيان ان يفاتحه بصراحة وينفس عن غضبه . ولذلك رجا ألا يذهب كايقمو وايليان معه الى خيمة حسن ! فقال فى نفسه : "هل يمكننى ان اجد حجة لابعادهما الى خيمة توكتاس ؟ " ثم ابتسم مرتاحا لأنه سيستريح استراحة جيدة بفضل الطقس الجميل . كم مرة تتاح للانسان طوال حياته ان يلتقى ببعض اصدقائه المقربين ويتحدث معهم من القلب الى القلب ؟ . .

لما صعدت السيارة الى احدى المصاطب ظهرت امامهم

خيمتان ، فتبين دوسجيان لأول وهلة ان تلك الخيمة السمراء بيت حسن . ما ان سمع كلب راقد بجانب زريبة الاغنام صوت السيارة حتى وثب يعوى مندفعا نحوها . وسرعان ما رفع ستار الخيمة فخرج منها عدد من الصبيان ، فالنساء فالرجال واحدا واحدا ، وعلى وجوههم تعابير الارتباك لأنهم لم يتوقعوا حضور هذا الضيف الكبير . وبينهم حسن بقامته المديدة وتعابير وجهه الدالة على ما فى نفسه : " اف ، لقد حلت بنا مصيبة ! " ربما لم يتفرس فى الزائرين ، فبدا فى قلق شديد حتى اذا وجد ان الذى يخرج مبتسما من السيارة التى وقفت امامه هو دوسجيان ، صاح بكل قوته من غير وعى :

— ايه ، دوسجيان .. نعم حضرة المحافظ دوسجيان !

اثار هذا الصياح اعصارا فوريا ادى الى اضطراب وارتباك ، فهرولت النساء نحو الخيمة وتسارع الرجال لتحيته وتراجع الصبيان الذين التفوا حول السيارة يضغطونها بأصابعهم الى الوراء فى شىء من الخوف . ثم تحولت تعابير الوجوه من استغراب وارتباك الى تبسم مصطنع للتودد ، كما اصبح حسن نفسه متحيرا ذاهلا . ولما بسط دوسجيان ذراعيه نحوه التزم حسن بالانحناء اجلالا له ، ومد يدا ليضعها على اصابع يده فى حذر شديد * وقال بلهجة جافة :

* وفقا لآداب المجاملات المتبعة بين الاصدقاء لدى قومية القازاق يجب بسط الذراعين للمصافحة وضم الصدر الى الصدر مرات . هنا يقصد ان حسنا لم يتلزم بالآداب المتبعة .

— يا حضرة المحافظ ، نشكركم شكرا جزيلا على تذكركم ايانا وتشريفكم لنا بهذه الزيارة الكريمة .

قطب دوسجيان جبينه ، وقد غاب عن ذهنه كل شيء ، واطرق رأسه بعد ان تنهد كأنه خائف من تلك العيون التي تنظر اليه بحرارة واحترام . رفع حسن ستارة الباب مسرعا وقال لدوسجيان :

— تفضلوا ! تفضلوا بالدخول !

نظر دوسجيان الى كايقمو وقال له :

— تفضل ، يا اكساكرى !

تراجع كايقمو الى الوراء متعجلا يلوح بيديه كأنه اصيب بذعر .

— لا ، لا . . انتم اولا ، تفضلوا بالدخول اولا !

قاله ايليان مرددا صدى كايقمو .

شعر دوسجيان بخجل ، وانفعل مرة اخرى فقال فى نفسه : " حتى هؤلاء المسنون ينحطون عن طيب خاطر الى التذلل والتملق ، فهل يبقى فى امكانهم ان ينجزوا اعمالا جليلة ؟ لقد الحقوا بالبلاد عارا ! ألم اكن بالامس طبيبا بيطريا ذليلا اغدو واروح فى الدروب الجبلية حاملا على كتفى حقيبة طبية ؟ هل اصبحت اليوم واليا عظيما ؟ انه من ابسط الواجبات ان نحافظ على تقاليد احترام المسنين الحميدة التى خلفها لنا اجدادنا ! " فأحس بأن خديه تتوردان والعرق يتصبب من جبينه ، فتخلى عما كان يكنه نحوهما من الادب والاحترام ودخل الخيمة بخطى واسعة ، وجلس على مقعد الشرف مباشرة .

هل اختار يوما مشؤوما لزيارة حسن ؟ فما ان هنأ حسنا وزوجته

قائلا : " مبروك زفاف ابنكم " حتى جلب على نفسه متاعب اخرى يرجع سببها الى كايقمو وايليان ايضا ، اذ تناوبا الخروج من الخيمة لأمر ما ، ثم تحرك كل الافراد فى الخيمتين ، وساد هرج ومرج : بعضهم يرفع الماء من البئر وبعضهم الآخر يحمل الحطب ، هذا يعد الشاى ، وذاك يقلى الكعك القازاقى بالزيت . فلم يستطع دوسجيان ان يواصل الحديث مع حسن وزوجته لأنهما خرجا ايضا باشارة من الآخرين . لقد ادرك ماذا يعملون ، لكنه عاجز عن منعهم ، فبقى وحده فى الخيمة صامتا .

بعد قليل تم اعداد الشاى ووضع الطعام على غطاء السفرة ؛ وبرغم ان اصنافه معدودة الا انها مأكولات لذيذة لا يتذوقها افراد الاسرتين فى الايام العادية . ولم يتم صب الشاى للناس الجالسين فى حلقة حتى جر يرقند ابن حسن شاة كبيرة بيضاء الى الخيمة لكى يتلو الضيوف البسملة لها .

المروج هى المروج ! ان اصغر موظف رسمى فيها — حتى ولو كان رئيس فرقة انتاج — يتمتع بسمعة عالية ومحترم عند الناس . اما " رئاسة المحافظة " فهى منصب غير عادى ومعروف لدى الجميع ، لأن المحافظ يملك مهابة ونفوذا لا يقدران . انظر ، ان ظهور شخصية واسعة الشهرة مثله فى قرية نائية ، قد اقام المروج واقعدها ، فتدفق سيل الناس مشاة او راكبين نحو خيمة حسن لرؤية محافظهم . ولم تمض ساعة واحدة حتى صارت خيمة حسن ومحيطها فى زحام شديد . اضف الى ذلك ان جماعة من الفتيان والفتيات والشابات المتزوجات جاءوا فى ثياب زاهية

الالوان كأنهم ملائكة وحوريات نزلوا الى الخيمة ، وراحوا يذرعون ذهابا وايابا امام بابها حتى اذا خرج كايقمو وتمتم معهم لحظة ، تدفقوا الى داخل الخيمة صاخبين فأدرك دوسجيان من تعابير وجوههم ودخولهم واحدا تلو الآخر ان هذا المشهد قد اخرجه زميلاه ، فاكفهر وجهه غيظا ولكن ليس بوسعه الا ان يكظم غيظه !

نظر كايقمو مبتسما الى الفتيات والشابات المتزوجات المتزاحمات مثل قطيع مذعور وقال لهن :

— يا بناتي ، ألا تقدمن عرضا للعم المحافظ !

يبدو ان هذا ما يصبو اليه الشباب ، فقبلوا الطلب بسرور . وبعد ان تهامسوا قليلا حثوا بالاجماع شابة متزوجة ترتدي الثوب الاحمر على ان تقدم برنامجها . فتقدمت في شيء من الشجاعة تدل على انها قد جربت بعض المناسبات الحافلة ، وجلست على ركبتيها بجانب دوسجيان واجالت نظراتها الباسمة بين الضيوف الجالسين على مقاعد الشرف ثم دوزنت الطنبور وبدأت تغني . كان صوتها جميلا جدا ، والاغنية اغنية شعبية رقيقة مؤثرة . فأصغى اليها كل من في الخيمة وخارجها في نشوة ، لكن هذا ما زاد دوسجيان الا حرجا وقلقا ولم يطرق سمعه غير عبارة كايقمو هذه : " من اجل العم المحافظ . " فقال في نفسه : " ألم تغن هذه الشابة لتعبر عما في قلبها ، وانما من اجل تسلية الآخرين ولا سيما من اجل العم المحافظ . " يا للاسف ، من صرت انا ؟ ولم يجرؤ على اطلاق العنان لتفكيره .

حين انتهت الاغنية انفجرت الخيمة بالهتاف " رائع ، رائع ! " لكن هذا الهتاف فى رأى دوسجيان لم ينفجر من اجل الاغنية بالذات وانما هو تودد الى فتاة جميلة . لقد نشط كايقمو الغناء الى ابعد حد ، فراح يطاق بين حين وآخر ضحكات طائشة لا تناسب سنه . ثم التفت الى فتى مشعث الشعر بشاربين مثل جواد سريع الحركة دافق الحماسة متحفز لتقديم العرض ، وغمز بشفته :

– يا بيكان ، جاء دورك لتعزف لنا بعض الالحان :

ما كاد ينتهى كايقمو من كلامه حتى هب الفتى قائما ونفخ صدره ، وادار نظره فى الحاضرين ، وابتسم ابتسامة عريضة ، وابدى تأهبه لاستعراض براعته . ثم شق طريقه بين الزحام باشارة من كايقمو حتى وصل الى مجلس الشابة المغنية حيث جلس متربعا وراح يعزف الطنبور بلا انقطاع دون ان يعلن اسماء الالحان . فمرة يقع فى الآذان « سارآركان » ومرة « المروج فى عز الصيف » ومرة لحن فيه رائحة من « كيغستن » . . لم يعزف فى الحقيقة لحنا موسيقيا خالصا وانما عزف لحنا خليطا ، ولهذا اومأ دوسجيان الى كايقمو بنظرة ليأمر بوقف العزف غير ان كايقمو ظل يصغى الى عزفه بكل انتباه كأنه راع يراقب الاحوال الجوية مهملا لأول مرة طلب المحافظ . ولم يكتف بذلك بل شجع الفتى على ان يعزف ألحانا اخرى .

استغل كايقمو لحظات الراحة ما بين اللحنين ليخاطب دوسجيان بلطف :

— ايها الرفيق المحافظ ، كيف براعته فى العزف ؟

انتفض دوسجيان ذعرا بهذه المفاجأة ، واحمر وجهه فى قليل من الارتباك ، ولكى يسمع ثناء المحافظ واصل كايقمو كلامه :

— آه ، كيف بلغ هذا المستوى !

تظاهر كايقمو بأنه متأثر بالعزف كل التأثير ثم غالى فى مدح الفتى قائلا :

— احسنت يا فتى ، لقد قدمت مثالا فى التعلم بجد وطلب العلى بهمة عالية . من المؤكد ان العم المحافظ راض عنك كل الرضى ولا شك انه سينقلك الى فرقة الرقص والغناء فى المحافظة .

ثم همس فى اذن دوسجيان قائلا :

— ابن اختى . . .

يا له من ذئب مقيت ! لقد اقترب من صيده وكاد يمسك بيده عنان دوسجيان . . لكن هيهات ! دوسجيان ليس كولد الناقة الذى يمكنك ان تجره من انفه . لقد خطوت خطوة خاطئة يا اخى المحترم . . وضحك دوسجيان ضحكة باردة .

ازداد الفتى حماسة وزهوا ازاء اطراء خاله امام الملأ ، ولم يعد بحاجة الى ايماءات او ايحاءات من خاله ، وسولت له نفسه انه اصبح حرا طليقا له ان يعزف ما يحلو له وانه بغير مساعدة من خاله يستطيع ايضا ان يكسب بمواهبه وكفاءته حظوة عند المحافظ مثل جواد اصيل يكسب السبق فى الحلبة . لكنه لم يحقق ما اراد ، فبينما هو فى نشوة من ألحانه ، يهز رأسه طربا

وتشرق البسمة فى عينيه ، فاجأت الناس صيحات من المروج تشغل بالهم عن الالحان .

– ما هى الصيحات ؟

– ماذا حدث ؟

تساءل الناس مذهولين فخرجوا من الخيمة متزاحمين ، فاذا بالطنبور قد سكت كأن اوتاره انقطعت من شدة الرعب والفوضى .

استراح دوسجيان من الطنبور المزعج ، وخرج من الخيمة حيث شاهد اشد فتنة تحدث فى يوم رحلته : عجوز بدينة فى تنورة زرقاء تجر اذيالها على الارض ، قطعت جرف الجبل تقصد الخيمة وهى تصيح وتلعن بأعلى صوتها :

– يا بيكان ، عاقبك الله ، لا يهمك الا اللعب ، لست الآن صغيرا ! هل تعرف ان اربعة خراف قد قتلها الذئب ...

انطلق جماعة من الفتيان الى الخيول ودهش بيكان بهذه الصيحات ، فحمل الطنبور تحت ابطه وجرى بقوته وراء الكلاب الراكضة التى اجتازت جرف الجبل .. وقف دوسجيان مأخوذا وقال فى نفسه : " عندما ينزل ضيف مشؤوم يقتل الذئب الاغنام " ، صدق المثل الشعبى .. انا ذلك الضيف المشؤوم . وزاد فى غضبه تعليقات من حوله :

– هذا بيكان لن ينشأ رجلا ! يلهو ويعبث ويعاقر الخمر كل يوم ويتسكع هنا وهناك فى منطقة عووله حاملا طنبوره ، مع ان اباه مريض طريح الفراش ...

– والذين يدللونه هم اولئك الكوادر الذين يذهبون به الى

كل مناسبة وكل حفلة اينما اقيمت . . .

انزعج دوسجيان بالتعليقات ، فابتعد عنهم . لكن عبارة "الذين يدللونه هم اولئك الكوادر" ظل صداها يتردد فى اذنيه . . .

— ٣ —

ندم دوسجيان كثيرا على رحلته هذه ، واستعد للعودة لأنه لم يجد حاجة الى مكوثه ، وحثهم على اطفاء نار الطبخ ورفع الموائد . لقد احس بغربة عند حسن رسائر الاصدقاء تشكل هوة سحيقة تفصل بينه وبينهم ، وتباعد بينهم عاطفيا وفكريا ولغويا . يا للاسف . . يا قلب صديقى الحميم ، اين تروح ؟ انه كمن يبقى فى البرارى فريدا وحيدا وبقلب مهجور مقفر ، ويسيطر على كل عصب من اعصابه انفعال من التذمر والتكدر ، فلم يقل الا عبارة "هناك مكان آخر نزوره" ، لم يرد على تمنيات زوجة حسن ولم يودع اى شخص . . اتجه الى السيارة مكسوف الفؤاد ، وفى هذه اللحظة حدث امر آخر يكدر النفس .

حين سمع ايليان خبر العودة راح يبحث عن شيء هنا وهناك ، وهو يشد اذنيه ويحك خديه . فلما لاحظت حاله فتاة ممتلئة الجسم اقتربت منه وهمست فى اذنه :

— يا عم ، حقيبتكم قد اخذها اولاد تلك الخيمة ،

جحظ بعينيه وقال :

– اين ؟

– هناك . . .

تقدم بخطوات ثقيلة الى موقد والتقط من جانبه حقيبة زرقاء كبيرة . فوقف برهة مذهولا منتفخ الخدين ، ثم استدار بسرعة عنيفة لا توافق جسمه الضخم الثقيل ، وانطلق الى خيمة جيران حسن فى غضب وانزعاج . فناداه دوسجيان :

– تعال ! الى اين تذهب ؟

لم يلتفت ايليان اليه ، بل مضى يخطو خطوات واسعة حتى وصل الى امرأة نحيفة قصيرة ذات شعر اصفر تقوم بطبخ خبز الصاج .

نهضت تلك السيدة الشابة من مقعدها فورا ووجهها متورد من لفح النار واجالت نظرها فيمن حولها فى ارتباك وخوف شديدين كأنها تستنجد بهم ، وبعد لأى قالت خائفة :

– لعب بها الاولاد العفاريت ورموها هناك . لا تغضبوا يا عم !

اسرعت الى خيمتها واحضرت كرشا من الزبدة * وقالت :

– يا عم، لم يبق فى بيتنا الا هذا الكرش .

ادخلت الكرش فى الحقيبة متأسفة كأنها عاجزة عن سداد الدين كله ، فبهت ايليان برهة ثم ضحك فى ارتياح . . فى الواقع كانت الحقيبة كبيرة جدا تتسع لهذه المرأة بكاملها فضلا عن

---

* كان القازاقيون يستخدمون الكرش المغسول وعاء لتخزين الزبدة .

كرش من الزبدة . اخذ ايليان ينظر الى الحقيبة حينا والى الجبن الزبادى المشمس على الرفوف حينا آخر . وفى شيء من الجزع ادركت المرأة دخيلته ، فانطلقت الى الرفوف وهى تفكر : " لا داعى لأن اقدمه الى رجل كبير مثله على دفعات ، من الافضل ان اصرفه بكل هذه الاشياء دفعة واحدة " . ثم جمعت كل ما على الرفوف من الجبن الزبادى واللبن الحلو واللحم المقدد ، ووضعته فى الحقيبة التى هى اكبر من ان تملأ . بيد ان ايليان ظل ينظر حوله ، حتى اذا لم يجد شيئا يمكن ان يملأ به الحقيبة استدار على عقبيه وانصرف دون ان يقول للسيدة الكريمة الحليمة كلمة شكر .
وما ان وقع نظره على دوسجيان الذى امامه حتى ارتعدت فرائصه ، لكنه سرعان ما عاد الى حالته الطبيعية ، ونقل الحقيبة من يد الى اخرى ، وتصنع امارات الغضب وهز رأسه معبرا عن عجزه قائلا :

— انظر ، هذه السيدة الشابة طلبت منى حمل هدية صغيرة الى زوجتى ولذا اصرت على حشو هذه الاشياء فى الحقيبة ، واذا رفضت غضبت على ، لكنها ستصبح عبئا ثقيلا على رحلتنا !

وبدا كأنه انفعل من الندم والغيظ .

" انظر الى هذا الذئب ما ابرع وسائله فى الاصطياد والنهب ! " فكر دوسجيان على هذا النحو واستدار متقززا .

وهناك وقفت تلك المرأة حزينة واجمة بعد ان تعرضت للنهب . واقترب ولدان فى ثياب بالية من زاوية مظلمة داخل الخيمة يرقبان من خارجها . قال دوسجيان فى نفسه : " ما هى الاسباب التى ادت بهذه الاسرة الى هذا الفقر ؟ أيرجع سبب ذلك الى ان هذه

المرأة نشيطة فى الاكل كسولة فى العمل ؟ لعل دوسجيان رأى هذه المرأة من قبل ، لكنه لم يذكر اسمها ولا شيئا عنها . ولم تمض على مغادرته للمروج سوى سنتين حتى غاب عن باله الكثير الكثير ، وصدق المثل القائل : " ما لا تراه العين قد ينساه القلب" . تنهد دوسجيان من اعماقه وهو ينظر الى تلك المرأة ثم سألها قائلا :

– يا اختى ، كيف معيشتكم ؟

ضحكت المرأة منه ضحكة ساخرة وقالت :

– تعيشها على كل حال وكما رأيت . . .

صحيح ، لقد رأى ما رأى ، فلم يعرف فى وقته جوابا ، ثم ابتسم وشرح قائلا :

– اعنى يا اختى هل تحسنت معيشتكم ؟ وهل زاد دخلكم بعد تعهد تربية المواشى ؟

اجابت المرأة على الفور وقد زال عنها الحذر والحياء اللذان لازماها فى اثناء حديثها مع ايليان :

– من المعروف ان معيشتنا تحسنت فعلا عما كانت عليه ، لكنها لم تصل الى ما يتحدث القادة عنه من الرخاء . . بصراحة اننا نطعم الاسرة ونكسوها بشىء من الصعوبة الآن .

– أهذه حالة اسرتك وحدها ام حالة جميع الاسر فى المرعى ؟

– لست كادرا مثلكم تتفقدون كل مكان ، فكيف اعرف احوال المرعى ؟ وعلى كل حال فان حالتنا كما رأيت . . .

اثار كلام المرأة رغبته فى مزيد من التعرف فاقترب منها وقال :

– يا اختى ، قولى من فضلك ما هى اسباب ذلك ؟

– انتم اعرف منى بهذه الاسباب .

ثم فكرت لحظة واردفت تقول :

– تم بيع المواشى للافراد فى المراعى الاخرى ، اما فى مرعانا فيطبق نظام التعهد ، فتعهدت اسرتنا مائتى رأس من المواشى حسب نصوص اللائحة التالية : رأس الغنم بأربعين يوانا ورأس دواب الجر بأربعمائة يوان ، وعلينا ان نقدم الى ادارة المرعى الربح بنسبة ١٥٪ فى نهاية السنة حسب عدد الرؤوس المتعهدة ، بصرف النظر عما قد يحدث من انخفاض عدد الرؤوس . واضف الى ذلك نفقات الادارة والمرعى والعلف والبيطرة فلا يبقى لدينا فلس واحد . . كان الشتاء شديد البرد كما تعرف ، فخسرنا بعض المواشى ، ومن اجل تعويض هذه الخسارة دفعنا كل ما ادخرنا فى السنوات الاخيرة من المال حتى لم تبق دابة واحدة فى حوزتنا . هذه هى الاسباب التى اعرفها انا . . .

– لماذا لم تبلغوا هذه الاحوال الى القيادة العليا ؟

– بلغناها الى القيادة منذ وقت طويل ! وفى السنة الماضية رفع بعض الناس الشكوى الى الامين تشانغ ، اما هذا الكادر كايقمو فان لم ترفع الشكوى اليه مرات فى اليوم ، فانها ترفع على الاقل مرات فى الشهر .

– ماذا قالوا فى شكواكم ؟

– أيمكن ان يقولوا شيئا ، أيمكن ان يعارض كادر ما قرره الكادر الآخر ؟ قالوا جميعا : الحق مع توكتاس . . .

كانت الكلمات التى نطقتها هذه المرأة النحيفة القصيرة لاذعة مثل طلقات نارية ، فأحس بخجل وحرج كما شعر بأنه سبب فقر هذه الاسرة ، لأنه قام نفسه بتقنين هذه الانظمة واللوائح ، ثم بعد ذلك لم يقم بفحص دقيق لأحوال تطبيقها ولا بتلخيص جدى لتجاربها ، بل كان سريعا فى تصديق ما عرض عليه الآخرون من احوال ، وهز رأسه موافقا وفوق ذلك سلم هو بيديه شهادة استحقاق " المؤسسة المتقدمة " الى توكتاس منذ ايام ! لم يعالج هذا الامر بصورة سليمة ! كان ضحية لتلك الشعارات المزيفة الخداعة فى السنوات الماضية ، فهل يريد الآن ان يصبح مدافعا عنها ؟ تصبب العرق البارد على جبينه . وعندما رفع رأسه لينظر مرة اخرى الى الولدين النحيفين من سوء التغذية واللذين يتطلعان اليه فى خوف وذلك العجل الرابض الجائع الذى لا يجد العلف والرفوف التى خلت من الجبن الزبادى بعد ان تعرضت للنهب والسلب استبد به الغضب قال للمرأة بصوت مرتعش :

— لا تغضبى يا اختى ، كل الاخطاء ترجع اسبابها الينا ، والانظمة غير السليمة يجب تغييرها ونحن المسؤولون عن تصحيحها .

هزت المرأة رأسها مبتسمة راضية وقالت :

— نشكركم على نيتكم الطيبة . . .

ولكن دوسجيان لم يستطع التخلص من المتاعب المتعاقبة ، فما كادت السيارة تتحرك حتى فوجئوا بتوكتاس يأتى راكبا يلهث هو وحصانه لهاثا شديدا . جاء خصيصا لدعوة دوسجيان الى

خيمته . وحالما وصل ترجل عن حصانه ، وجرى نحو السيارة .

اصر توكتاس على فتح باب السيارة وسلم على كل من فيها بحرارة ثم قال فى اصرار :

— يا سائق ، حرك السيارة الى بيتى !

— لكننا مشغولون جدا ...

قاطع توكتاس دوسجيان على الفور وقال فى تذمر :

— لا يمكن ان تعودوا دون زيارة بيتى مهما كنتم مشغولين . انى انتظركم من مدة طويلة .

سلم عنان الحصان الى صبى وصعد السيارة وقال :

— حسنا ! سأرى من منكم يجرؤ على رفض الذهاب الى بيتى ...

لم يجد دوسجيان بدا من الذهاب الى بيته ، فقال له :

— سنجلس فى بيتك قليلا ثم نعود ولا داعى الى اعداد الطعام .

— حسنا .

حينئذ فرح كايقمو وايليان اللذان ظلا قلقين على ان يصر دوسجيان على رأيه السابق ، وانهمكا فى الحديث مسرورين :

— آه ، هذه قلوب الاصدقاء ! المحافظ مشغول جدا ، ولم يتناول الطعام الا منذ قليل ، ومع ذلك يأخذ من وقته الذهبى لزيارة مكان آخر ...

— عمر الانسان قصير مثل ذيل السمانى ! فيجب ان يحترم الناس بعضهم بعضا ، والا فماذا يعملون ؟

ضحك توكتاس وردد اقوالهما :

ــ ليس هناك شيء لا يمكن بذله من اجل الاصدقاء ، كما يقول المثل : " اذا احببت اصدقاءك لا يعتدى عليك اعداؤك " ، ان دوسجيان هو فخر لمنطقتنا الجبلية ، واذا لم نحترمه فمن يستحق احترامنا ؟ من اجل هذا فقط جئت من بعيد . اذا ارتقى الانسان سلم المناصب يكثر الزوار طبعا ، واذا واجهتك مشكلة عويصة فى المدينة فأخبرنى بها فى التلفون . . وانا اساعدك فى كل ما تطلب اما فى هذه السنة فأنا كفيل بتوفير اللحوم الشتوية لك . . .

ضحك دوسجيان ضحكة صفراء وقال :

ــ انت بارع عظيم ، اشكرك ، هل تبقى عندكم لحوم شتوية اذا اعطيتنى ما لديكم ؟

ــ طبعا عندنا ما يكفى سد حاجاتنا ، ففى " قدرنا الكبير" (يقصد المرعى الجماعى) مواش . . .

ــ ألم تعهدوا بكل المواشى الى الافراد ؟ فكيف تبقى فى " القدر الكبير" مواش اخرى ؟

ــ آه ، يا دوسجيان ، كيف نسيت هكذا ؟ لقد قلت امامك وامام الامين تشانغ : " انى لا اصدق ان الناس سيعيشون فى رغد فور إلغاء سياسة " القدر الكبير" ، ولذلك ابقيت بضعة عشر قطيعا من الاغنام تحت ادارة الجماعة .واريد ان ارى ماذا سيحدث فى المستقبل ؟ وكل ذلك يجرى حسبما وافقتم عليه . . .

لم يجد دوسجيان ما يقوله بل دمدم :

ـ نعم ، نعم .

الآن عرف دوسجيان معرفة جيدة تلك العواقب التى سببها اهماله فى العمل ومكر توكتاس . صحيح ان توكتاس قال ذلك القول فى الخريف الماضى ، ولكنه لم يعبر عن تأييده وان وافق عليه الامين تشانغ . ثم بعد مناقشة طويلة اتخذوا قرارا بتوزيع هذه المواشى فى الربيع القادم والغاء سياسة "القدر الكبير" بصورة شاملة . فكان فى اعتقاده ان هذا الموضوع قد حل فلم يقم بالتحقيق حوله . يبدو ان توكتاس الآن قد نسى هذا القرار . قال دوسجيان لنفسه : "ماذا يمكن ان اقول له ، واذا اضفت بعض الشيء ، فلا شك انه سيضع كل المسؤولية على لأنه قال قبل قليل 'لقد قلت لكم' و'اعمل ذلك حسبما وافقتم عليه' . فان استطيع رد اعتبارى او سحب كلامى مهما اوجدت لنفسى من مسوغات ، بل على العكس ستقع كل التبعية على انا" .

توقفت السيارة فجأة ، فسأل دوسجيان السائق قائلا :

ـ ما بك ؟ لماذا توقفت ؟

فأجاب توكتاس بدلا من السائق :

ـ انا طلبت منه ذلك . . لكى تختاروا من القطيع شاة او شاتين .

وقفت السيارة امام خيمتين متلاصقتين ، فأقبل بضعة رجال نحو السيارة مسرعين كأنهم يسابقون الكلاب العاوية ، فحث دوسجيان السائق على تحريك السيارة خوفا من ازعاجهم :

ـ لا نتعبهم ، لا احتاج الى الاغنام ، حرك السيارة !

لكن مرافقيه وتوكتاس قد نزلوا من السيارة . ولما رأى ذلك ، اضطر الى السكوت ، وحينذاك قال له توكتاس :

ـ انزل من السيارة ، يمكنك ان تأخذ راحة فى الخيمة ريثما يتم اختيار الاغنام !

اغتاظ دوسجيان اغتياظا شديدا وقال :

ـ ألم تسمع ؟ لقد قلت لكم لا اريد غنما ، واننى اعنى ما اقول . فى بيتى ما يكفينا .

امتقع وجه توكتاس قليلا ، واستدار متقدما نحو زميلى دوسجيان، فأسرع كلاهما الى المحافظ ، وقال احدهما :

ـ ما بكم يا سيادة المحافظ ؟ انه يقدم لك الغنم بنية صادقة ! فلماذا لا تقبله ؟

وقال الآخر :

ـ لا تحرج توكتاس ، اقبل عطاءه ! لكنك يا توكتاس عليك ان تحذر مثل هذه الامور فيما بعد . اذا خرج الرفيق القيادى لتفقد مكان ما واخذ معه اغناما لفت بذلك انظار الجماهير ، هذا ما يفكر فيه المحافظ . . .

عبس دوسجيان وادار رأسه الى خارج السيارة وهو يطفح بالحقد الدفين ، واحس كأن سكينا تحز فى قلبه . وحين لمح زميلاه سحنته هذه توقفا عن الكلام وتسمرا فى مكانهما . قال توكتاس :

ـ اذن ، كما تشاؤون . . .

رأى توكتاس ان النتيجة لن تكون جيدة اذا هو حمله على

القبول ، لذلك سلك طريقة اخرى واردف قائلا :

— لنترك المحافظ يأخذ حصته فيما بعد ، خذوا شاة واحدة للامين تشانغ . فقد طلب منى ذلك منذ وقت ، وسيارتكم تتسع .

لم ينطق دوسجيان بكلمة . فانطلق الزميلان — كأنهما تسلما مهمة طارئة مجيدة — وراء توكتاس الى قطيع الاغنام .

قال دوسجيان لنفسه : " يا لك من احمق ! هل كل كفاءتك ان تنقل الغنم والزبدة الى اولئك الناس ؟ ماذا كان بوسعك ان تعرف لو لم تقم بهذه الرحلة الطويلة ؟ احترقت نار الخجل والذل فى قلب دوسجيان وسرعان ما سرت فى اجزاء جسمه ، وتحت خطوط الشمس الذهبية عند المغرب عادت تظهر بوضوح نصب عينيه صورة حسن الذى ينظر اليه نظرة ارتياب وكأنه يقول له " هل يمكنك ان تصبح مثل هؤلاء الكوادر الغادرين " وصورة السيدة الشابة التى تشكو له فقر اسرتها . يبدو كأن هذه الصور تريد ان تختم علامات الاجرام على وجهه او كأنها تريد ان تفشى له مكنونات صدور الاصدقاء ، وبالتالى خفق قلب دوسجيان خفقانا شديدا ، فأدار رأسه بسرعة نحو السائق وقال :

— هيا ، حرك السيارة .

— ألا ننتظرهم ؟

قال بحزم :

— لا حاجة . نتركهم هنا ، ونرمى تلك الحقيبة الى الخارج .

وبعد ان انتهى من الكلام نهض قليلا ، ورمى الحقيبة الى الخارج ، ثم اغلق الباب بقوة وقال :

ـ هيا بنا !

ابتسم السائق الشاب مدركا كل شيء وحرك السيارة . ولم يعرف دوسجيان أكان ابتسام السائق بسبب غضب المحافظ المخلص الصادق فجأة ام بسبب قطعه لذلك العنان الذى يقبضه الرجلان فى ايديهما وتركهما يذوقان تعب السير على الاقدام ؟ السبب مجهول ، لكن هذه الابتسامة المشرقة ظلت على وجه السائق وقتا طويلا .

احس دوسجيان بارتياح لا مثيل له كمن افرغ الاعباء الثقيلة كلها عن عاتقه ، فتنفس تنفسا عميقا ، وتطلع الى الخارج غارقا فى التفكير فيما السيارة تنطلق فى السهول الخضراء المنبسطة ...

كلمة عن المؤلف



غلازخان احمد من قومية القازاق، ولد فى محافظة هوتشنغ بشينجيانغ عام ١٩٣٨ ، وتخرج فى كلية الآداب بمعهد شينجيانغ عام ١٩٥٨ . بدأ انتاجه الادبى عام ١٩٥٦ ، ولقد نشر مجموعات قصصية منها «تخيلات الربيع» و«مصباح لا ينطفئ» و«الدموع الاخيرة» ورواية «تغيرات هائلة» وقصة متوسطة الحجم «نار المخيم فى منطقة نائية» . وقد فازت اعماله بجائزتين ادبيتين وطنيتين للاقليات القومية . وهو عضو فى اتحاد الكتاب الصينيين . يشتغل الآن متفرغا للابداع الادبى فى اتحاد الادب والفن لولاية ييلى الذاتية الحكم للقازاق بشينجيانغ .

رمال متحركة

بقلم : محمد بقلاش من قومية الويغور

— ١ —

ايام يوليو فى صحراء تاكلامكان مرسم صهر ، حيث تغلى كل الرمال غليان الصهارة . يقع فى هذه الصحراء المترامية مركز محافظة صغيرة ، تكثر فيه اشجار خضراء ، يبدو كأنه جزيرة صغيرة معزولة ، تصمد بكل شجاعة فى اعماق هذه البوادى اللاهبة . الآن قد ابتعد عنه باص .

كان الجو خانقا شديد الحرارة عند الظهر وبعد ان اجتاز الباص واديا كثير الشجيرات ، اخذ يقتحم الكثبان المتموجة فى ارتفاع وانخفاض كسنام الجمل .

قال السائق لنفسه : " يا ويلى ! .. لم ابال بهذا الوجع امس ! . . . "

لقد قطب السائق وجهه من شدة الالم . ولما رأى مقطعا من الطريق امامه قد غطى بالرمال المتحركة ، غير سرعة الباص واجتاز من فوقه ببطء ، وكلما توغل الباص فى البوادى ، ازدادت

المقاطع المغطاة بالرمال المتحركة .

تمتم السائق فى شيء من الندم ، وهو يضغط بيده بطنه الايمن الذى يشتد الالم فيه : "كنت اظن ان هذا الالم سيزول سريعا ! "

بدأ يحس بألم فى بطنه امس ، لكنه لم يجد وقتا لزيارة الطبيب . فبعد ان قضى فى مركز المحافظة ليلة واحدة فقط حمل ركابه وابنه الذى ستنتهى عطلته الصيفية ، وتحرك بباصه متوجها نحو المحطة النهائية — المنطقة الادارية .

كان السائق يمسح بقفازه قطرات العرق المتصببة عن جبينه حينا ، وينظر الى مقياس حرارة الماء حينا آخر . وعندما رأى الزئبق يرتفع قال فى نفسه : " أيغلى الماء فى الخزان ؟ يا للهول ! من اين نعثر على الماء فى هذه الصحراء التى لا يحدها حد ؟ "

رفع قدمه قليلا لترك دواسة البنزين وهو مثقل بالهم ، فانخفضت سرعة دوران العجلات . وحينذاك ألقى نظرة على ولده الذى هو فى الثانية عشرة من عمره ، وكان قد استغرق فى نومه بفعل ما يأتى من نوافذ الباص المفتوحة من رياح حارة جافة وما ينبعث من المحرك من هواء حار ، وتمتم : " انا عطوف رقيق القلب اذ جلبت معى ولدى فى الباص . . . "

كان الجو خانقا جافا جعل التنفس صعبا . وكانت جبال آلجين السوداء النائية والكثبان العديدة تبدو كأنها تنفث نيرانها على هذه الصحراء ، فتلفح ألسنتها وجوه الركاب بين حين وآخر . وفى الافق البعيد يسبح سراب ابيض . وكانت الحرارة الصحراوية المزعجة والحرارة الخانقة داخل الباص تعذب الركاب وتدوخهم .

كم تمنوا ان يمروا بواحة ظليلة ! وكلما تطلعوا الى الافق البعيد ، احسوا بألم وتعب فى عيونهم . لكنهم لم يروا فى هذه الصحراء الشاسعة المقفرة سوى الكثبان المكروهة القبيحة . لقد ملوا من هذه المناظر السمجة الرتيبة من وقت طويل ، فأثقل النعاس اجفان عدد منهم ، وهم يتكئون على الجالسين بجوارهم ، ونام عدد آخر ، ورؤوسهم بين اذرعهم على مساند المقاعد الامامية . والغريب ان معظم الركاب نساء ما عدا اربعة او خمسة رجال .

هناك فتى فى الصف الخلفى راح يتذمر :

– يقل الباص هذا العدد الكبير ألا يخاف سائقه من ان يكسر جسره الرئيسى ؟ !

هذا الفتى يبلغ عمره نحو خمس وعشرين سنة ، ويلبس طاقية ويغورية ، وانفه افطس قليلا . لعله اصيب بقروح فى طفولته فتركت على رأسه وعنقه بقعا كثيرة كأنها حرير باهت اللون من كثرة الغسل . تابع الفتى كلامه وهو يحك عنقه بفتور :

– هل ستستمر بهذه السرعة ؟ الله يعلم ماذا سيحدث لنا !

فتح الركاب عيونهم .

قالت سيدة حديثة السن وهى ترضع طفلها :

– ايه ! يا للحرارة الخانقة اللعينة ، انها تحرق الناس فيصبحوا فى ضعف وفتور مثل طاقية جلدية عتيقة على رأس اصلع .

وحينئذ نقل الركاب انظارهم الى ذلك الفتى على غير موعد سابق ، فانتعش الجو داخل الباص على الفور .

خلع الفتى طاقيته امام الملأ متحديا كأنه يقول : انظروا ، هل ترون ؟

فاضت عينا الفتى رضى وعجبا ، وكانت صلعته حمراء لامعة مثل ابريق برونزى مصقول ، فلم يتمالك بعض الركاب عن الضحك . وابتسمت تلك السيدة ، وقالت للفتى :

ـ يا اخى العزيز ، البس طاقيتك بسرعة ، لقد تلوثت العربة برائحة كريهة .

قال راكب جالس امام الفتى مازحا :

ـ السماء تتجهم ، أفلا تلبس طاقيتك بسرعة !

فقال الفتى خفيف الروح :

ـ يا اختى الكبيرة ، ماذا تقولين ؟ أيقصد كل منكم اننى اصلع ؟ نعم ، لعلى اصلع فى نظركم ، ولكن امى تنادينى دائما "بيض الذهب" و"كنز الفضة" ها ، ها ، ها ...

ضحك الفتى وهو يغمز بعينيه ، ثم ابدى وجهه تعابير مضحكة .

ـ ٢ ـ

تابع الباص طريقه والشمس تشتد حرارتها . لم يصادف فى تلك الصحراء الشاسعة اى كائنات حية ، لا انسانا ولا طيرا غير آجام متناثرة من الصنوبر الكورى تنمو فى الكثبان المتموجة . ما اجمل ان يتوقف الباص فى مكان مظلل ولو بقعة صغيرة !

شعر السائق بألم بطنه يشتد مع كل هزة من هزات الباص ، واصبح هذا الالم لا يطاق . امس كان يحس بالألم بين حين وآخر ، اما اليوم فالألم مستمر . وبرغم ذلك لا يمكن ان يتوقف الباص هنا فى منتصف الطريق حيث لا توجد قطرة من الماء ولا شجرة . ثم ان الباص اذا لم يجتز هذه الصحراء المحفوفة بالاسرار فى الوقت المناسب ، وصادف الرياح العاصفة ، فسيغرق بلا شك فى سيول الرمال المتدفقة . لهذا ظل السائق يقود الباص برغم ألمه الشديد صابرا على اسنانه .

نبه السائق نفسه بصمت : " يا عثمان ، ثابر واصمد ، لا توقف الباص قبل اجتياز منطقة الرمال المتحركة . انت تعرف جيدا ان بعهدتك ثلاثين نفسا ونفسك انت . اذا خارت عزيمتك قيد شعرة سقطت الى الابد ، وقضى على الباص بمن فيه . فالسيارات قلما تمر بهذه المنطقة ، لذلك عليك ان تثابر وتكون من الصابرين ... "

فجأة احس السائق بأن يدا غير منظورة تمسك بقلبه وتجره نحو الاسفل . لقد اصابه دوار ، وشعر بالغثيان ، فضغط بيده على موضع الالم ، ثم مد رأسه ليتقيأ خارج النافذة ثم مسح بيده فمه وانفه ، وألقى نظرة قلقة الى ولده النعسان الذى لا يتحمل الحرارة الخانقة ، ثم شد قدمه على دواسة البنزين .

قال السائق مخاطبا الركاب بصوت عال :

ـ سيدخل الباص فى منطقة الرمال المتحركة ، فاذا لم يقو على التحرك ، ارجو منكم ان تضعوا العوارض تحت عجلاته .

كان يسود العربة صخب وضجيج فلم يسمعه احد بوضوح . وفى نفس الوقت كان الفتى الاصلع يثرثر ويلوح بيديه والركاب الضجرون ينظرون بانتباه شديد الى شفتيه المتحركتين .

تابع الفتى حكايته التى لا يعرف احد متى بدأ يحكيها ، وراح يمسح قطرات عرقه المتصببة بطرف قميصه :

— لم ألاحظ على وجه السائق اى تعبير ينم عن انه سيوافق على ان اركب سيارته انا الشقي المنكود الحظ ، فليس فى جيبى فلس واحد . كنت امارس التجارة الا ان الحظ لم يوافنى ، ثم خطر ببالى ان اطلب الرزق بيد ثالثة — يد الحرامى . . .

غمز بعينيه وكشف عن اسنانه ضاحكا ثم استطرد يقول :

— غير اننى اشعر بخطر منتظر . اخاف ان اقع فى ورطة ، فمن المستحسن اذن ان ابتعد عن هذه الحرفة . ثم نظرت الى السائق مرة اخرى فرأيته يشتعل غضبا ، يصعب معه الاقتراب او التودد اليه . فكرت مليا ، وقررت الا اترك سيارته مهما يكن الامر ، اذ انها ستمر بقريتى . فكرت فى نفسي ' وان كنت يا معلم شديدا صارما انا سوف . . . ' وفى هذه اللحظة تفتق ذهنى عن حيلة ، فتقدمت مرة ثانية من السائق المشغول باصلاح السيارة . قلت له بصوت ناعم من كل قلبى مطأطئا رأسى وانا اقرأ على وجهه : " رحمتك يا معلمى الطيب ! ما كان من الادب ان اضايقكم لو كان عندى وسيلة اخرى . صادفت اليوم شخصا من اهل قريتى اخبرنى بأن امى توفيت امس . انا وحيدها ، وكانت تحبنى كثيرا وتوفر لى كل اسباب العناية والرعاية فلما سمعت هذا

الخبر ، كادت احشائى تتقطع من فرط الحزن والاسى . . ما اديت البر لها يوم كانت على قيد الحياة ، ولم امثل فى حضرتها ساعة لفظت انفاسها الاخيرة . فان لم اعد الى قريتى بعد هذا الخبر ، يقتلنى العار والخزى . لا بد ان اعود لحضور مراسم الدفن . رحمتك يا معلمى الطيب ! انت كبقية الناس لك ابوان . . . "
وتكلمت باكيا ، وبدوت حزينا كسير الفؤاد . وفى نفس الوقت استرقت نظرة اليه فوجدته يفكر فى امرى . كم رددت لو ابكى بكاء مرا ولكن عينى تضن بالدموع . يا للاسف كم انا منحوس ! لمت نفسى فى الخفاء الف مرة ، واخيرا عضضت طرف لسانى عضة شديدة آلمتنى من رأسى الى اخمص قدمى ، فانهمرت دموعى من شدة الالم . ولما تأكد السائق من حالى رق قلبه له ، واشفق على وقال : " غرفة القيادة مشغولة فاجلس على اكياس السماد المحملة فى العربة " . لاحظت انه اصبح على جانب من اللطف ، فجعلت انشج وقلت له : " يكفينى موطئ قدم اجثم عليه كعصفور الدورى . " ثم صعدت الى السيارة . وبقيت مقطبا جبينى من شدة الالم فى لسانى الذى عضضته فعلا هذه المرة . وبالرغم من ذلك غمر قلبى الفرح ، واخذت اترنم بصوت خفيض وراء ظهر السائق .

امسك الفتى عن كلامه ، واخرج قطعة من ورق الجريدة ، ولف بها سيكارة واشعلها ، ثم واصل حكايته قائلا :

– ولم يمض وقت طويل حتى اقتربت السيارة من مشارف قريتى . وكيلا ينكشف سرى طرقت غرفة القيادة ، وطلبت وقوف

السيارة بقرب ارض للذرة بعيدة عن بيتي . وما كدت انزل واثبا من السيارة حتى خرج السائق من غرفة القيادة فركل العجلات ركلات لفحص ما اذا كان الهواء فيها كافيا . ولما هممت ان اودعه متظاهرا بالحزن وقلت له : " يا معلم ، اشكركم . . . " ، فاجأني صوت من خلفي : " يا ولدي ، كيف حالك ! " ادرت رأسي نحو جهة الصوت ، فأخذني الذهول واعترتني الحيرة ، اذ وجدت امي تقبل نحوي على شاطئ القناة الواقعة بجانب حقل الذرة جارة خلفها عجلا . اما السائق فقد ذهل ايضا ، ولم يستطع ان يفهم ما حدث على مشهد منه . فجعل ينظر تارة الى امي وهي تنبسط اسارير وجهها بهجة وسرورا وتارة اخرى الى وانا مضطرب شاحب اللون . وحينذاك اسرعت امي الى وعانقتني باكية : " يا فلذة كبدي ، عدت اخيرا ! لقد طال اشتياقي اليك حتى كاد البكاء يذهب بنور عيني . . . " بذلك سقط قناعي ، واخذ وجهي يحمر ويصفر . لشد ما ندمت على هذيان لساني ! ووقفت في مكاني بكل صفاقة ووقاحة ، وراحت امي تقبلني وتلامس رأسي ، وبعد ذلك قدمت التحية والشكر الى السائق فسألني السائق متجهما : " ألم تقل لي ان امك توفيت امس ؟ " وغني عن البيان ان الخجل قد ضيق الدنيا في وجهي ، اما امي فدهشت لأول وهلة ، ثم انقلبت غاضبة : " آه ، يا لك من مخلوق قاس ! كيف ساغ لك ان تقول ان امك ماتت وهي على قيد الحياة ؟ ! " ما ان انتهت امي من الكلام حتى انهالت على ام رأسي بغصن كان تحت به العجل ، فهربت منها مهرولا الى بيتي . وماذا اقول ؟ حقا على ان

اشكر امي المحرومة الف شكر من صميم قلبي ، اذ انها خلصتني من شتائم لاذعة سيصبها على السائق ، ولا شيء اشد من شتائمه في احراجي . ولذلك انزل الغصن على جسمي ضربات مبرحة ، وادخل على قلبي فرحا وسرورا ، بينما ظل السائق واقفا في ذهول . . .

ضج الباص بالضحك ، فتوقف الفتى عن حكايته ، ومسح بذراعه العرق المتصبب من ذقنه ، ولبس طاقيته البالية على رأسه الاصلع ثم مد يده بخفة وخاسة الى داخل سلة مغطاة بغصون صفصاف رفيعة في ممر الباص دون ان يفطن اليه الركاب . وفجأة دوى نحيب في الصفوف الامامية ، فهدأ الركاب حالا ، ووجهوا ابصارهم الى الامام ، فرأوا امرأة في نحو الخامسة والاربعين من عمرها تنتحب متحسسة جيبها ، فتعجبوا من حالها وسألتها امرأة عجوز قائلة :

ــ ما بك يا اختي؟ لماذا تبكين ؟ هل ضاع منك شيء ؟

قالت تلك المرأة حزينة :

ــ منذ لحظة فقدت مبلغا قدره ثلاثون يوانا ، لم ادخرها الا بكل صعوبة . كان هذا المبلغ معي في الصباح عندما قطعت التذكرة في المحطة ، غير انه في اثناء صعودي الى الباص . . .

لقد بح صوتها من البكاء الشديد .

تنهدت العجوز من اعماقها ، وهزت رأسها قائلة :

ــ مسكينة ! ما اسوأ حظها ، انها بائسة الحظ فعلا . . .

تابعت سيدة جميلة كلام العجوز فقالت :

ــ كيف ضاعت النقود منها ؟ من الارجح ان لصا سرقها . . .

هناك عجوز نحيف ذو لحية قصيرة ظاهر بمظهر ملا قال بصوت مرتعش :

— اى خبيث ارتكب هذا المنكر ؟ لن ينتهى الى نهاية حميدة .

استدارت المرأة المنتحبة على عقبيها ، وحدقت بعينيها المخضلتين بالدموع الى الفتى الاصلع وقالت :

— الله سيوثق السارق عاجلا ام آجلا ويكشف قناعه على مشهد من الجماهير .

ثم مسحت بطرف شالها دموعها على خديها ، وتنفست الصعداء . اما الفتى الاصلع فجلس على مقعده مرتاح البال ، ومد رأسه الى خارج النافذة يتذوق الدراق بكل لذة . ثم سحب رأسه ليمد يده الى السلة مرة اخرى .

ظهر ركام ضبابى اسود فوق الجهة الجنوبية الغربية من الصحراء .

واذا بفلاح جالس بجانب النافذة يعد بأصابعه ما يهمه ، ويرفع بصره بين حين وآخر للتطلع الى ذلك الركام الضبابى الذى ظهر بعيدا ، ثم قال :

— يا للمصيبة ! سنصادف عاصفة هوجاء .

هدأ الركاب وسرحوا انظارهم بعيدا ، فرأوا الركام الضبابى قد اصبح حالكا يغطى الافق فى غرب الصحراء .

قالت امرأة كاسرة الصمت المطبق :

— الله يحفظنا ! لا تقل قولا مشؤوما .

فقال لها الفلاح :

ـ يا اهالى الاعزاء ، لست ادعو لهبوب العاصفة .

ثم استمر قائلا :

ـ يا سيدة ، انظرى بعيدا ، حيث اثير غبار ضبابى اصفر يزداد كثافة . لقد اصبح بامكاننا الآن ان نشم رائحة للغبار ، وهذه كانها بوادر العاصفة ، ربما ...

هز الفلاح رأسه وانقطع عن الكلام ، فبدت على وجوه الركاب امارات القلق والخوف وهم يوجهون انظارهم الى الغبار الضبابى الذى يشتد كثافة واتساعا .

قال الفتى الاصلع وهو يمضغ الدراق فى لذة وسرور بعد ان نبذ نواته من فمه :

ـ العاصفة ليست مخيفة .. نحن نجلس فى هذا الصندوق الحديدى فكيف تمنعنا من ان نتقدم باستمرار ؟ !

وانكشف للفلاح فجأة ان الفتى الاصلع قد اخذ الدراق من سلته دون اذنه ، فنظر اليه بطرف عينه ، ثم جر سلته الى جانبه . ولم يكد يرفع غطاءها كي يطمئن على دراقه حتى سدد الى الاصلع نظرات مفعمة بالنقمة والغيظ ، وقال له منقبض الوجه منتفض اللحية :

ـ انت وقح قليل الحياء ، كيف تأكل الدراق دون اذن مسبق ؟

حافظ الاصلع على هدوئه وقال :

ـ ما هذا البخل ؟ ! حقا ، انت ابخل البخلاء .

ثم هز كتفيه وضحك مسرورا . فصرخ الفلاح عليه غاضبا :
— هل هذا الدراق من بستان اجدادك ؟ انما هو من بستانى الذى استصلحته انا بعرقى ودمى . . عليك ان تعرف شيئا من الخجل وان كنت لصا . لقد اكلت دراقى دون اذنى ثم ترمينى بالبخل !

لاحظ رجل فى بذلة العمل وهو فى الاربعين من عمره تقريبا ، وبجانبه عكاز ، ان الاصلع لا يحسب حسابا لأحد ، فقال له :

— ليس لك حق يا اخى فى ان تأكل دراقه ! لماذا لا تعتذر اليه ولو بكلمة واحدة ؟

سكت الاصلع وادار نظره الى خارج النافذه ، ومن ثم هدأ الفلاح بعض الشيء . اكفهرت السماء وهبت العاصفة متدخلة الغبار والرمال الى داخل الباص ، فسارع الركاب الى اغلاق النوافذ . وقال الفلاح حاكا ذقنه :

— ألم اشر الى هذا منذ قليل ؟ ان الصحراء هى الصحراء على كل حال .

لم ينته الفلاح من كلامه حتى توقف الباص فجأة فى هزات عنيفة بعد ان ظل يجرى فى حالة جيدة . فأفاق الركاب من تفكيرهم وتصايحوا مذعورين .

صاحت امرأة فى الصف الامامى :

— يا لسوء الحظ ، سقط السائق !

فرمى الركاب انظارهم بقلق واضطراب الى حيث يجلس

السائق . كان السائق بالفعل مستلقيا على ظهره فوق غطاء المحرك . فنهض صاحب بذلة العمل على الفور متكئا على عكازه وتوجه الى مكان السائق . وبدا ان ساقه اليسرى من تحت الركبة مبتورة حيث تدلى بنطاله الايسر متمايلا خلال سيره . طرق الباب الزجاجى الحاجز بين غرفة القيادة والعربة بضع طرقات ثم اومأ بيده الى ذلك الولد الذى وراء الباب وقد وقع فى اضطراب وحيرة ، فجاء لفتح الباب فدخل صاحب بذلة العمل الغرفة وقال :

ـ يا معلم ، كيف صحتك ؟ هل تحسنت بعض الشيء ؟

لم يرد السائق عليه وبقى متمددا على غطاء المحرك يضغط بيديه على بطنه . فربت الرجل كتفه وسأل :

ـ يا معلم ، ما بك ؟

ـ بطنى .. بطنى .. ربما ...

لقد اطبقت عينا السائق ، واصبح وجهه شاحبا وشفتاه بلون التراب . فوضع الرجل يده على جبينه ، فوجده باردا مبللا ، وعندها راح ولده يبكى بكاء شديدا .

سأل الولد قائلا :

ـ يا ولد ، هو ابوك ؟

فهز الولد رأسه بالايجاب وهو ينشج .

ثم سأله ثانية :

ـ متى بدأ ابوك يشعر بألم فى بطنه ؟

اجاب الولد باكيا :

ـ منذ مساء امس ، قال لى انه احس بألم فى بطنه ، ثم

قال فى الصباح انه يشعر بالغثيان .

ارتج الولد من شدة الحزن . وكان صاحب بذلة العمل يقف صامتا عاضا شفتيه مقطبا جبينه ، بينما يده الممسكة بالعكاز ترتعش .

اشتدت الرياح فى هبوبها ، وستتحول الى عاصفة بين لحظة واخرى . لكن الباص ما زال واقفا على الرمال الناعمة . جاء الملا والفلاح صاحب الدراق الى غرفة القيادة ، فقال صاحب بذلة العمل لهما :

– لنساعد السائق على الوقوف !

اسندوا السائق برفق ليستريح على المقعد الايمن الخالى فى غرفة القيادة بعد ان فرشوا له لحافا ، وكان قد اغمى عليه .

تنفس صاحب بذلة العمل تنفسا عميقا ، وهز رأسه قائلا :

– يبدو ان السائق مصاب بالتهاب الزائدة الدودية . لقد اصيب عامل فى ورشتنا بهذا المرض . وسمعت من الطبيب ان للمصاب يشرف على الموت ان لم تجر له العملية الجراحية خلال ست ساعات .

قال الملا بصوت مرتجف يتحسس لحيته الفضية :

– يرحمه الله .

سأل سائل :

– من يسوق الباص ؟ أننتظر الموت فى هذه الصحراء ؟

قال الفلاح فى يأس :

– ان لم نتحرك فان سيول الرمال ستدفننا جميعا خلال عشر دقائق.

هز الفلاح والملا رأسيهما وعادا الى مقعديهما ، على حين بقى صاحب بذلة العمل مقطب الجبين ينظر الى خارج النافذة غارقا فى التفكير .

قالوا ان الرمال فى منطقة الرمال المتحركة ، اذا هبت اضعف ريح تتحرك كالسيول ، ولهذا السبب انقطع هنا الطريق العام الجديد .. كم من مسافرين مشاة او راكبى حمير اغرقتهم العاصفة وسيول الرمال ! ولذا كلما سمع الناس اسم هذه المنطقة ، ارتعدت فرائصهم من الخوف والهلع . والآن اتفق ان توقف الباص بمن فيه من الركاب المنكودين فى وسط المنطقة وصادف العاصفة ، والشمس وان لم تغرب بعد قد استتر وجهها بضباب من الغبار واسدل الظلام استاره على الصحراء . راحت العاصفة تعصف باستهتار اشد فأشد ، وتلطم الباص بقوة رهيبة ، فيتغلغل التراب والغبار الى داخله من خلال النوافذ . وحينذاك انقطعت اى صلة بين الركاب والدنيا مما زادهم فزعا .

شد صاحب بذلة العمل قبضتيه ، واظهرت عيناه الواسعتان ما يثقل نفسه من قلق واضطراب ، وفكر فى نفسه : " نعم ، ان كلام الفلاح صحيح . اذا لم نغادر هذه المنطقة فسينتظرنا ما لا يمكن توقعه . ولكن السائق مريض ولا احد من الركاب يعرف فن القيادة . " تنهد تنهدا عميقا ، ثم رفع جبينه المقطب فوقع نظره من غير قصد على الولد الذى يلامس بيده والده المغمى عليه وعيناه تلمعان ، فذكره المشهد شيئا — صحيح .. هذا الولد هو الذى اوقف الباص بمهارة فور ما اغمى على ابيه . هذا

الولد يعرف قيادة الباص بالتأكيد ! فرح الرجل وانبسطت اسارير وجهه ، واسرع الى الولد قائلا :

– يا ولد ، هل تعرف قيادة السيارة ؟

هز الولد رأسه بالايجاب .

– ولد نبيه ! اذا واصلنا البقاء هنا فسيواجهنا الخطر وستدفننا الرمال المتحركة بعد لحظات ، اضف الى ذلك ان اباك فى خطر وهو فى امس الحاجة الى الاسعاف ، وكذلك فى الباص امرأة حامل فى حالة خطيرة .

نظر الرجل الى الركاب واضاف يقول :

– لن نتركهم ينتظرون الموت . عليك انت ان تسوق الباص لكى نخرج من منطقة الرمال المتحركة بأسرع ما يمكن . اذا خرجنا منها ، نصل الى مركز المحافظة بعد اربعين كيلومترا فقط ، وننقل اباك والسيدة الحامل الى المستشفى فى وقتهما ، ما رأيك يا بنى ؟

بدت على وجه الرجل حماسة بالغة ، فتوقف الولد عن البكاء ، واخذ يفكر فى الموضوع .

قال الولد فى جبن وهو يمسح دموعه بظهر كفه :

– الرياح شديدة ، انا خائف .

وضع الرجل يده على كتف الولد برفق ، ونظر اليه بلطف وحنان ثم قال له :

– يا بنى ! انظر . . انت رجل ايضا ، لا تخف ، اجلس انا بجانبك ونسير رويدا ، فهل من شىء يقلقنا ؟ !

تردد الولد قليلا . ولما رأى نظرة الرجل الواثقة الصادقة ، سرى تيار دافئ فى قلبه الذى لا يجد انيسا يؤنسه او يساعده على تبديد قلقه وخوفه ، واحس بعاطفة هذا الرجل وحنوه الابوى ، فهز رأسه موافقا . ثم قال وكأنه قد عقد عزمه :

ـ طيب ، انا اسوق !

قال الرجل متأثرا :

ـ انت رجل حقا . هذا جيد جدا . تول انت شأن القيادة ، وانا سأقوم بتنظيم شؤون الركاب .

ادار الرجل رأسه نحو الركاب ، وقال بصوت عال :

ـ يا اهالى البلد ، السائق طريح المرض ، لم يعد قادرا على قيادة الباص ، فصرنا الآن فى خطر .

توقف الرجل عن الكلام قليلا ، وألقى نظرة الى الركاب ، فوجد وجوههم جميعا قد ارتسم عليها قلق واضطراب .

كانت العاصفة تزمجر اكثر فأكثر ، وزجاج النوافذ يصر بين حين وآخر ، والباص يوشك ان ينقلب . واضاف الرجل يقول :

ـ علينا ان نغادر هذه المنطقة الخطرة لأن جبروت العاصفة يشتد ، ولن تأتينا سيارة فى مثل هذا الوقت ، فهذا يعنى ...

ـ يعنى اننا جميعا فى خطر الموت المحقق !

ـ عسى ان نصادف سيارة من حسن الحظ !

ـ يا رب ، انك على كل شيء قدير .

ـ امس ارتعشت جفونى اليسرى ...

كان الباص فى هرج ومرج . اخذت ام الرضيع والسيدة

الحامل تبكيان . اما السيدة الحامل فهى تشكو عسر الولادة منذ يومين ، وقد جاءت من محطة رعوية بالقرب من شاتشيوان ، قاصدة مستشفى المنطقة الادارية .

قال صاحب بذلة العمل بصوت مرتفع :

— يا جماعة اهدأوا . . اهدأوا ! صحيح ان خطرا جسيما يداهمنا ، ولكن المثل يقول : " الامل معقود ما دمت على قيد الحياة " فهناك امل فى ان نغادر بسلامة .

ساد الصمت فى الباص فورا ، واصبح الناس كبدر سابح بين السحب ، يظهر تارة ويختفى اخرى ، يتذبذبون بين تصديق وارتياب وعلى ملامحهم تعابير امل وفرح . ألقوا ابصارهم الى الرجل المتكلم ذى العينين اللامعتين تحت حاجبيه الكثيفين السوداوين ، فكأن جبينه العريض يمتلئ ذكاء ومحاجر عينيه الغائرة تلتهب حماسة . انه قوى البنية ، لكنه فقد احدى ساقيه (قيل انه عامل فى محلج القطن ، وقد عضت الماكنة ساقه ، لكنه ظل يعمل فى المحلج بعد نقاهته) وها هو ذا وحده يجذب الانتباه ، ويقول فى حزم وثقة :

— هو بالذات املنا !

واشار بيده الى الولد الواقف امام عجلة القيادة .

— ولد !

مد الركاب اعناقهم من الدهشة للتطلع الى غرفة القيادة . فاستطرد الرجل يقول بكل ثقة :

— نعم ، هذا الولد ! انه ابن السائق ، وقد تعلم فن القيادة

من ابيه منذ صغره ، وقد سبق له ان ساق الباص .

توقف الرجل لحظة بسبب السعال ، ثم تابع كلامه :

ـ هذا الولد وحده سينقذنا جميعا مما نحن فيه !

مرة اخرى عرفت مشاعر الخيبة والتذمر طريقها الى الوجوه . وصاحت السيدة الجميلة اولا :

ـ ماذا قال هذا الرجل ! كيف يستطيع ولد صغير مثله قيادة الباص ؟

فقال الفلاح متجاوبا معها :

ـ الناس فى هذا الباص ليسوا كمثل كتلات ترابية فى الارض المقفرة . لكل واحد منا رأس فقط ، فكيف نعمل اذا انقلب الباص بسبب قيادة ولد اصغر من عصفور الدورى ؟

قال الفتى الاصلع :

ـ يا عم ، ترى ماذا سيحدث ايضا ؟ ألا ترى معى ان الباص المقلوب سيهشم اولا وقبل كل شيء دراقك الذى تمنعنى من اكله ، ثم يهشمك انت ، وانا من بعلك ! ها ، ها ، ها . . .

وجه الركاب اليه نظرة شزراء . وصاح صائح :

ـ اذا قاد هذا الولد الباص ننزل منه حالا ! ولدتنا امهاتنا فى هذه الارض ، فمن الواجب مهما يكن الامر ان نقف بأقدامنا على هذه الارض حين نموت .

قال الاصلع وهو ينظر الى صاحب بذلة العمل :

ـ لما عرجت نحونا منذ قليل ظننا انك وجدت لنا حلا .

وقف صاحب بذلة العمل مستندا الى الباب الحاجز بين غرفة القيادة والعربة يحمر وجهه حينا ويصفر حينا آخر ، فاستطرد الاصلع يقول :

ـ كنت اعتقد اننى الغبى الوحيد فى هذا العالم ، ولكن اتضح لى يا اخى الكبير انك اشد منى غباوة ، كيف يمكنك ان تسلم ارواحنا الى ولد صغير ما تزال تفوح منه رائحة الرضاعة !

عادت الفوضى الى الباص مرة اخرى ، وعادت النساء يبكين . فوقف صاحب بذلة العمل فى مكانه يصر على شفتيه ، ويحدق حزينا الى هؤلاء المتعنتين اشباه المجانين الذين يتصارخون بلا رادع ولا وازع ، ثم ارسل تنهيدة عميقة . واخذ ينظر تارة الى السائق المتمدد الذى يئن من غير انقطاع وتارة اخرى الى الولد الذى لا يعرف كيف يعمل امام عجلة القيادة ، ثم قال للركاب بصوت عال بعد ان ابتسم ابتسامة صفراء :

ـ اسكتوا . . اسكتوا . . اسمعونى ! اذا لم ترتاحوا لهذا الولد ، فان الرمال المتحركة ستدفننا بسرعة . لأن الخروج من هذه المنطقة على اقدامنا مستحيل . والى جانب ذلك يوجد بيننا عجائز وضعفاء ومرضى وذوو عاهات ، بل منهم شخصان فى امس الحاجة الى الاسعاف ، فهل يسمح ضميرنا بتركهم ؟ ثم اذا نزلنا من الباص هنا فى هذا المكان ، فلن نخطو اكثر من عشر خطوات حتى نسقط من شدة العاصفة وننجرف مع سيول الرمال . واذا واصلنا مثل هذه المناقشة العقيمة فيما بيننا حتى يفوتنا الوقت ، فستكون النتيجة اما ان تدفننا الرمال الصفراء واما ان نموت جوعا

وعطشا فى هذه الصحراء الحارة الجافة !

قال صاحب بذلة العمل ذلك فى انفعال شديد والعرق يتصبب من جبينه العريض ، وصدره القوى يرتفع ويهبط ، فهدأ الركاب فجأة وساد السكون .

صاح الفتى الاصلع يشير بيده الى السلة :

ـ اذا لم نجد الماء فان عند هذا العم البخيل دراقا .

فلم يتمالك الركاب عن الضحاك . وقال الملا وهو يحدد النظر الى الاصلع :

ـ يا فتى ، لا ينبغى لك ان تسخر ممن فى سن ابيك ! كن صاحب ضمير حى ، وعليك ان تعرف معنى الاستقامة والنزاهة !

ضحك الاصلع كاشفا عن اسنانه ، وغمز بعينه نحو صاحب بذلة العمل ، قاصدا من ذلك تخفيف هموم الركاب قدر الامكان حتى تنبسط اسارير وجوههم ولو دقيقة واحدة .

قال صاحب بذلة العمل برباطة جأش محملقا الى الركاب الواجمين :

ـ هذه حالتنا الآن ! نحن جميعا لا نرغب فى ان نموت سدى : واذا كنتم غير مطمئنين لهذا الولد فى قيادة الباص ، فهل عندكم اقتراح افضل ؟ قولوه اذا سمحتم !

ثم اجال نظره فى وجوه الركاب ، فلم يتكلم احد . عندها مضى يقول :

ـ يعنى ليس لأى منكم اقتراح افضل . ما دام الامر كذلك ،

فعلينا ان نترك الولد يقود الباص لكى نخرج من هذه المنطقة فورا !

كان الركاب ينظرون حينا الى وجه الرجل الذى تعلوه تعابير العزم والحزم وحينا الى العاصفة التى تزداد شدة وزمجرة خارج النوافذ ، ويبدو ان كل واحد منهم لا يملك الا ان ينتظر قرارا من الرجل . فاستدار الرجل نحو الولد ولامس رأسه بلطف وحنان وقال له :

— حرك السيارة .. بكل مهارتك يا بنى !

تمتم الولد وقد قلص عنقه :

— يا عم ، اذا استمر هؤلاء الناس فى صخب وضجيج فأنا .. انا .. خائف ...

ربت الرجل كتف الولد برفق ، ودفعه الى عجلة القيادة قائلا :

— لا بأس عليك ، تشجع اكثر ، سأجلس بجانبك !

جلس الولد على مقعد القيادة وجلا ، وشغل المحرك وضغط على دواسة البنزين فبدأ المحرك يهدر . حين سمع السائق صوت المحرك المألوف استعاد بعض وعيه وتقبض ، وجهه الشاحب من شدة الالم ، وقال بصوت خافت يخالطه الانين :

— ماذا .. ماذا تعمل يا بنى ؟

قال صاحب بذلة العمل للسائق :

— كن مطمئنا ، يا معلم !

ثم قام بترتيب وسادة السائق ولحافه فى عناية ، ففتح السائق

عينيه الفاترتين بصعوبة وهمهم :

— لوائح المرور .. لوائح .. المرور ...

— يا معلم ، اطمئن ، الأهم انقاذ الركاب ، اما المسؤولية فأنا اتحملها كليا .

سكت السائق ، فشغل الولد محرك الباص ثم فحص المقاييس والعدادات وتأكد من سلامتها ، وضغط دواسة البنزين بقدمه مرات ، ثم ألقى نظرة الى الرجل فمال الرجل برأسه نحوه فى سرور :

— مستعد ؟

هز الولد رأسه بالايجاب . فقال الرجل بلهجة حازمة :

— حرك الباص ايها الغلام الشجاع ، الآمال منوطة بك ، نحن جميعا بجانبك .

هز الولد رأسه موافقا ، وارخى جهاز تعشيق التروس رويدا ، فاهتز الباص هزات دون ان يتحرك من مكانه ، ذلك لأن الرمال المتحركة قد تراكمت حول عجلاته . فسارع الولد الى تغيير السرعة ، وضغط دواسة البنزين بقوة فتراجع الباص عن مكانه بعد هزة عنيفة اوقعت الركاب فى ذعر وفوضى .

— ايه ، الولد لا يصلح !

— اوقف الباص !

— اوشك الباص ان ينقلب حتى قبل تحركه !

التفت الولد خلفه فور توقف الباص فى الطريق ، وقد اخذه مشهد الضجيج .

فخرج الرجل عن طوره ، وهب واقفا من مقعده مستندا الى

عكازه ، وصاح باولئك الركاب الذين جن جنونهم :

ـ ما هذا الصياح ! من يرفض الولد فلينزل من الباص !

دهشوا من كلامه المدوى فعاد الهدوء الى الباص .

ـ يا بنى ! امض فى تحريك الباص برباطة جأش !

لقى الولد تشجيعا بالغا من عبارة الرجل الحازمة ونظرته الدافئة ، فحرك الباص مرة ثانية .

ارسل الرجل نفسا عميقا كأنه تخلص من عبء ثقيل ، ثم اعاد ترتيب اللحاف على جسم السائق الذى اشتد مرضه ، واتكأ على غطاء المحرك ليراقب احوال الباص .

ساد الباص هدوء الا ان هزاته بقيت مثار قلق . ليس من المعقول على كل حال ان باصا ضخما كهذا تعهد قيادته الى ولد صغير !

حددوا انظارهم المفعمة بالرعب والخوف الى الولد السائق وقد خيل اليهم انه ينطلق بهم الى جهنم ، فخيم فى الباص سكون رهيب غريب .

اشتدت الرياح العاصفة ، واظلمت السماء وتسرب شيء من الرمل عبر فجوات النوافذ .

لم يعد الفتى الاصلع يطيق هذا السكون الخانق ، فنظر الى رجل بشاربين اشقرين بجانبه وقال له :

ـ يا عم ألا تدع "قبرتك" تغرد لنا جميعا !

كان صاحب الشاربين حزينا مطرق الرأس ، وبجانبه كيس مملوء بأدوات النجارة ، وفى حضنه ترانزستور . فلم يلتفت اليه

ولو بنظرة واحدة ، وانما رد عليه بأن حرك رأسه تحريكا بطيئا .

تمتمت السيدة الجميلة وهى تنظر الى الاصلع نظرة شزراء :

– انت كثير الشَماتة لا تحزن لحمار مات ، بل تصنع من شعر ذيله ربابة . كيف سولت لك نفسك ان تسعى الى الضحك فى مثل هذا الوقت ؟

قال الاصلع وهو ينظف اذنه بسبابته :

– انى اخاطب ذلك الرجل ، فهل هذا يضايقك ؟ يا عمى الملا ، ألا يجوز لنا قبل ان نرجع الى ربنا ان نمشى ونحن نتحدث ونضحك ؟ !

كان الملا يهمهم بصلوات وآيات كريمة ، ولما فاجأه نداء الاصلع انتبه وقال :

– ها ، يا ولد ، فكر فيما يهدد حياتك .. ليس الوقت وقت مزاح .. رحمتك يا رب !

مسح الاصلع فخذه بسبابته التي نظف بها اذنه وقال :

– يا عمى الملا ، هل تطلب منى ان افكر ؟ منذ خرجت الى الوجود فكرت وتخيلت تخيلات كثيرة كثيرة ، لا يتسع لها هذا الباص على كبره .. هذا رأسى قد سقط شعره كليا من كثرة التفكير ...

وخلع الفتى طاقيته كاشفا صلعته ، ثم صفع رأسه صفعة مسموعة فلم يتماسك اولئك الركاب المهمومون المكتئبون عن اطلاق ضحكات مدوية ، وضحك الاصلع لضحكهم . ثم اعاد الطاقية الى رأسه ، ولامس بيده وجهه الاسمر ، ثم ارسل

تنهيدة خفيفة وقال :

– يا اهالى البلد ! الكائنات انواع وانواع ، وانما الانسان افضلها . انظروا ، اننا وان صار يوم القيامة على وشاك الحلول ، ما نزال نجلس هنا متضاحكين مرتاحين كأننا نترفه فى الجنة .

— ٣ —

مضى الباص فى اهتزاز وصعوبة كأنه خائف من العاصفة . واحس الولد بتعب والم فى ظهره من شدة توتر اعصابه ، وتخدرت اصابعه من طول الامساك بعجلة القيادة . كان من اجل وصول قدمه الى دواسة البنزين يتقدم بجلسته مرة بعد اخرى الى ان اصبح جالسا على حافة المقعد .

تابع الباص تقدمه ببطء متزايد . وثارت الرمال ، فملأ الغبار الافق ، واختفت الكثبان المتناثرة على جانبى الطريق عن ابصار الركاب . وفجأة صاح الولد :

– انى لا ارى الطريق !

انخفضت سرعة الباص فى الحال ، بهذه السرعة يحتمل جدا ان ينحرف الباص عن الطريق .

فقام صاحب بذلة العمل على الفور ، يستطلع الطريق ويعتنى بالولد ، ثم قال بصوت يشعر بالعجز والقلق :

– يا بنى ، اوقف الباص !

توقف الباص ، فسحب الولد اصابعه الخدرة من عجلة القيادة ،

واخرج الرجل منديلا من جيبه ليمسح به العرق المتصبب عن وجه الولد ، فألقى اليه الولد نظرة تساؤل : " ماذا نعمل الآن " . اما الرجل فظل صامتا يسرح نظره الى جهة تقدم الباص ثم قال للولد بعد فترة من هذا الصمت والتأمل :

— علينا ان نقطع اربعة او خمسة كيلومترات على حد تقديرى حتى نخرج من هذه المنطقة .

واستدار الرجل ليلقى نظرة الى الركاب ومضى يقول للولد :

— رأيى ان ينزل واحد منهم ليدل على الطريق امام الباص . . هذا الطريق قديم وعر ولكن التحرك خير من الوقوف فالمثل يقول : " قليل دائم خير من كثير منقطع " ، يا بنى ، افتح المصباح الامامى وسر وراء المرشد ، فما دام الباص يتحرك فان تغمره الرمال . . ما رأيك يا بنى ؟

هز الولد رأسه موافقا ، وقد رأى فى هذا الرجل الغريب قريبا عزيزا ووحيدا داخل هذا الباص بعد مرض ابيه . كما لاحظ ان هؤلاء الرجال المتعنتين الطائشين يحترمون هذا الرجل ويطيعونه ، فزاد ذلك من ثقته به واحترامه له .

وعندما وجد صاحب بذلة العمل الولد ينظر اليه نظر ابن لوالده ، احس بسعادة تغمر قلبه . وربت رأس الولد باطف وحنان وقال :

— يا بنى ، نحن نتعبك كثيرا ! انك ولد ممتاز ، فضاعف جهدك !

طرف الولد بعينيه ورد عليه بابتسامة . واتجه الرجل نحو الركاب مستندا الى عكازه وقال :

ـ يا فتى ، تعال هنا !

لم يكن الاصلع قد انتهى من حكاياته المضحكة الطويلة ومن محاولته العبث براكب آخر ، لذلك لم يلتفت الى الرجل المنادى كأنه لم يسمع نداءه . فكرر الرجل نداءه :

ـ يا صاحب الطاقية الويغورية ! انا الذى اناديك ، تعال الى .

لما تأكد الاصلع من النداء قال بين تصديق وشك :

ـ يا اخى ، انت تنادينى ؟

ـ نعم ، انا اناديك .

دهش الاصلع بعض الشيء ثم قام متثاقلا ، فاستحثه الرجل قائلا :

ـ ما هذا التثاقل ، اسرع !

اسرع الاصلع اليه . وعندها فطن الناس الى ان الاصلع فتى ضخم قوى البنية ، برغم ان ملامحه غير جميلة .

وقال الاصلع للرجل :

ـ يا اخى ، هل تريد اغنية منى ؟ لو لم اواس هؤلاء الناس بغنائى ، لماتوا من شدة الحزن واليأس .

قال الرجل بجدية :

ـ لا ، يا اخى العزيز ، غناؤك سنسمعه فيما بعد . لأن الوقت ليس وقت غنائك ، وانما هو وقت كفاحك من اجل الجماعة !

فقال الاصلع :

ــ آه ، اذا سمعت غنائى فسوف ...

قاطعه الرجل :

ــ حسنا ، يكفى ! الوقت ضيق جدا .. الغبار كثيف ، فالولد السائق لا يتبين معالم الطريق ، فانزل لتستطلع لنا الطريق وتسير امام الباص ، وبذلك يمكننا ان نخرج من هذه المنطقة بأسرع وقت ممكن .

سكت الاصلع فجأة ، ووجم فى تفكير عميق . فسأله الرجل بلهفة :

ــ ما رأيك يا فتى ؟ انت قوى الجسم كعمود المسجد ، فهل يعقل ان يهاب فتى مثلك هذه المهمة ؟ ناديتك لثقتى بك ، ولو اننى قادر ...

نقل الرجل نظره الى ساقه المبتورة ، ثم خفض صوته كأن شيئا يعترض حلقه :

ــ يا اخى العزيز ! بصراحة ، نحن فى خطر شديد ، فعليك ان تقدر الموقف ...

رفع الاصلع بصره وقد ارتسمت على وجهه امارات جد ، وقال :

ــ لا . يا اخى ، لست بهياب !

القى الاصلع نظره الى الصحراء التى تجتاحها العاصفة ، وهمهم متأثرا بصوت مرتجف :

ــ كنت لا القى غير الاهانة والسخرية اينما ذهبت . اما اليوم فأنت يا اخى الكبير ...

ولم يستطع متابعة كلامه . فقال الرجل وهو يربت كتفه :

ـ حقا انت فتى ممتاز ! ان لم يعتمد الناس عليك فى مثل هذا الوقت ، فعلى من يعتمدون ؟ ! على الناس ان يتبادلوا التعاون والثقة فيما بينهم .

وتابع الرجل قوله بلهجة ودية رقيقة :

ـ الركاب يحتاجون اليك فى هذه الساعة الحرجة ، وهم واثقون بأنك تستطيع ان ترشدهم الى الخروج من هذه المنطقة .

وحدق الرجل الى عينى الاصلع بقلب مفعم بالحب العميق ، فتشجع الاصلع وقبل نظرة الرجل التى تشيع بالمودة والرجاء والتشجيع ، ونفخ صدره قائلا :

ـ كن مطمئنا يا اخى ، دع هذا الاخ الصغير يحرك الباص !

ثم قال للولد مسرورا :

ـ يا اخى الصغير ، لا تخف ما دام الاخ الكبير معك . حرك الباص بمهارتك !

غمز الاصلع بعينيه نحو الصبى الذى يحدق اليه ، ثم فتح باب الباص ونزل منه . وسرعان ما ابتلعته عاصفة الصحراء .

ـ ٤ ـ

ما ان وقعت قدما الاصلع على الرمال اللينة حتى عجز عن فتح عينيه . واخذت العاصفة الرملية تلطم وجهه بلا انقطاع بحيث لم ير اى شيء . لم يكن فى حسباته ان العاصفة عنيفة الى هذا

الحد . وبعد قليل اضيئت مصابيح الباص ودوى بوقه ، فخطا الاصلع الى الامام خطوات صعبة جاعلا جسمه ملاصقا للباص . فى الواقع لم ينحرف الباص عن الطريق ، لكن الرمال غطت عجلاته. وصل الاصلع الى مقدمة الباص بصعوبة ، ثم تقدمه مترنحا فى العاصفة العنيفة ، ولوح بيده نحو غرفة القيادة اشارة لتحريك الباص . فشغل الولد المحرك ، لكن الباص لم يتقدم ولو قليلا . فشد الولد الضغط على دواسة البنزين غير ان الباص ظل مكانه يهدر ويهتز بعنف دون ان يتقدم خطرة . فتح الاصلع عينيه بصعوبة وتراجع الى ما وراء العجلات ، فوجد ان الرمال المتراكمة حولها هى سبب دورانها العقيم الذى زاد غرقها فى الرمال . فسارع الى ازاحة الرمال عن العجلات بيديه مغمضا عينيه . تسللت الرمال المثارة الى عنقه واذنيه ، فأخذ يحبس نفسه حينا ويلهث حينا آخر ومع ذلك لم تتوقف يداه عن ازاحة الرمال .

كان عمل الاصلع غير مجد ، اذ ان العاصفة استمرت تثير الرمال فتتكوم حول العجلات من جديد .

خرج الاصلع من تحت الباص زحفا ، وغطى وجهه بذراعه ليعود الى باب الباص حيث ينتظره صاحب بذلة العمل . ولما رأى الركاب الاصلع يصعد الى الباص ، امتقع لونهم خوفا ، وسرعان ما التفوا حوله . فسأله صاحب بذلة العمل بلهفة :

— هل غرقت العجلات فى الرمال ؟

اجاب الفتى رهو يفرك عينه بظهر كفه :

— نعم ، ولكن لم تغرق كليا بعد ، اما اذا بقينا على هذه

الحال فان الرمال المتحركة ستغرقنا جميعا .

قذف الاصلع الرمل من فمه ، فتبادل الركاب الملتفون حوله نظرات الفزع ، واغمض الملا عينيه وهمهم بصلوات وآيات كريمة . وفتح الرجل الذى يحمل ترانزستور فى حضنه عينيه الناعستين وظل صامتا فى مكانه وراحت النساء يبكين مرة اخرى .

لم يعرف الولد ماذا يفعل بعد اطفائه المحرك ، فجاس الى جانب ابيه المريض يلامس رأسه ، فاذا بصاحب بذلة العمل يستدير نحو الولد ويسأله بجدية :

– يا بنى ! سبق ان نظر ابوك الينا قبل سقوطه مريضا وظهر انه قال شيئا ، هل تذكره ؟

غمز الولد بعينيه واسرع قائلا :

– قال ابى ، اذا وصلنا الى منطقة الرمال المتحركة وغرقت العجلات فى الرمال ضعوا العوارض الخشبية تحت العجلات وبذلك يسير الباص باستمرار .. لا تنسوا هذا الامر ...

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة وقال :

– اين العوارض الخشبية ؟

– مربوطة برفوف الامتعة فوق سطح الباص .

فرك الرجل يديه فرحا وقال للاصلع :

– لقد وجدنا حلا يا اخى العزيز ! هل تتفضل وتصعد الى سطح الباص لانزال العوارض . والى جانب ذلك ينزل الركاب من الباص الا النساء والعم الملا من اجل ازاحة الرمال من امام العجلات وفرش العوارض تحتها ، لكى يجتاز الباص من فوق

العوارض ويخرج بنا من هذه المنطقة .

نشط الركاب حالما سمعوا كلام الرجل ، وقال احدهم :

ـ يا فتى ، اين طاقيتك ؟

طارت طاقيته مع الرياح ، وترشح رأسه العارى عرقا مختلطا بالغبار الثائر ، فلم يتمالك الناس عن الضحك عندما رأوا منظره هذا ، فقال لهم مبتسما :

ـ اصبحتم الآن اناسا بكل معنى الكلمة . اذا كنتم كذلك ، فعليكم ان تضحكوا حتى ولو واجهكم الموت . لا تكونوا مثل البقر لا يعرف غير اللهاث بعد فك النير عنه .

لقد سرته ضحكاتهم بالتأكيد . وسأله صاحب بذلة العمل :

ـ يا فتى ، ما اسمك ؟

ابتسم الاصلع قائلا :

ـ يا اخى الكبير ، الاصل ان ابى سمانى " اتاهون " . اما اهل قريتى فيدعوننى الابن الضال اتاهون . يا لسوء الحظ !

ثم ابتسم فاركا اذنه بسبابته .

قال صاحب بذلة العمل بجدية :

ـ يعنى اسمك اتاهون ! طيب ، يا اتاهون ، اسرع الى سطح الباص لانزال العوارض .

ثم اشار الى شخصين آخرين ـ الفلاح وصاحب الترانزستور وقال :

ـ اعملا بدلا من اتاهون على ازاحة الرمال المتحركة امام العجلات ، اما انا .. فأجلس بجانب هذا الولد .

نزل الرجال من الباص واحدا بعد الآخر . واخيرا قام الفلاح
ن مقعده اذ عز عليه ان يبتعد عن سلة دراقه .

فقال صاحب بذلة العمل له :

— يا اخ ، اسرع .. اسرع .

— انا نازل ، ولكن هذه السلة ...

فهم الرجل ما فى نفس الفلاح من القلق على دراقه . واضاف
لفلاح قائلا :

— انما اعنى .. لا تترك احدا يسرق دراقى ...

ما ان سمع الرجل هذا الكلام حتى ابتسم وقال له :

— يا اخ ، اطمئن ، انا مشرف عليه .

اتجه الفلاح نحو الباب وقال عند نزوله :

— كلفتك بهذه السلة .

انقضت العاصفة على الباص بكل عنف مزمجرة كعواء الذئب احيانا وزئير الاسد احيانا اخرى مما افزع الركاب كثيرا . سار النازلون مترنحين الى قرب العجلات حيث بدأوا يزيحون الرمال المتراكمة حولها ، اما الاصلع فصعد الى سطح الباص ، ورمى العوارض الى الارض ثم وصل الى مسمع الجماعة صوت شيء سقط من فوق وتبع ذلك انات . خرج الفلاح من تحت الباص الى مصدر الانات ، فوجد شخصا قد سقط على الارض ، فسارع الى مساعدته على القيام وقال :

— ماذا بك يا اخى العزيز ؟

بقى الاصلع يئن ويدلك خصره ثم قال :

– لقد رمتني العاصفة الى الارض ، يا لسوء حظي ! ما كدت اقف لربط العوارض بالحبل حتى رمتني العاصفة ...

كور الفلاح جسمه وسأله مهتما :

– كيف حالك ؟

– لو كانت الارض صلبة ، لتكسر دماغي . من حسن حظي ان الارض رملية ناعمة . ما حدث لي اني سقطت على كومة من القش ، لكم هي مريحة !

ثم ضحك الاصلع وضحك الفلاح معه .

ثم زحفا معا الى ما تحت الباص لازاحة الرمال . اشتدت العاصفة فثارت الرمال لتملأ الفضاء وتتسلل الى افواههم وانوفهم حتى تعذر عليهم ان يفتحوا عيونهم ، وكابدوا نار الظمأ في حلوقهم وسال العرق ممتزجا بالرمل الى عيونهم واعناقهم .

انخفضت اكوام الرمال امام العجلات ، فوضعوا العوارض تحتها . وقال لهم الاصلع :

– انا اذهب الى الامام لأدل على الطريق ، وانتم سيروا على جانبي الباص . اذا غرق في الرمال مرة اخرى بعد اجتيازه من فوق هذه العوارض ، فأعيدوا طريقة العوارض ...

ثم قلص الاصلع عنقه لمقاومة العاصفة الرملية ، وتقدم الى امام الباص ، وارسل اشارة من يده الى الولد السائق المترقب ويداه على عجلة القيادة . وفي هذه اللحظة بدا شبح ينزل من الباص . آه ، انه الملا لم يسمع نصيحة صاحب بذلة العمل بألا ينزل لكبر سنه . فشمر كميه وشارك الآخرين في العمل .

شغل الولد المحرك وفتح مصباحه . واخيرا تحرك الباص من مكانه الى الامام .

تقدم الباص وحيدا فى العاصفة وهو فى هذه الصحراء المترامية الاطراف مثل قارب صغير يضطرب فى بحر متلاطم الامواج ويتقدم الى الامام بصعوبة .

كيلومتر .. كيلومتران ...

ما اشق هذه الرحلة ! كلما تقدم الباص كيلومترا ، شعر من بقى بداخله انهم قضوا سنة فى اجتيازه ، واستمروا ينظرون الى الامام فى قلق شديد حتى احسوا بألم فى عيونهم من طول المراقبة . وفى الوقت نفسه راح يركض على جانبى الباص كل من الفلاح والنجار والملا الكبير السن حاملين العوارض مطبقين عيونهم ، يسقطون على الارض تارة وينهضون لمتابعة الركض تارة اخرى .

شق مصباحا الباص ضباب الرمال الكثيفة كأنهما سيفان صارمان . وعلى ضوء المصباحين اخذ الاصلع يخطو خطوات صعبة فى وجه الرياح الشديدة ، بينما الباص المضطرب المتمايل يتبع كل خطوة من خطواته التى بعثت الامل فى قلوب الركاب .

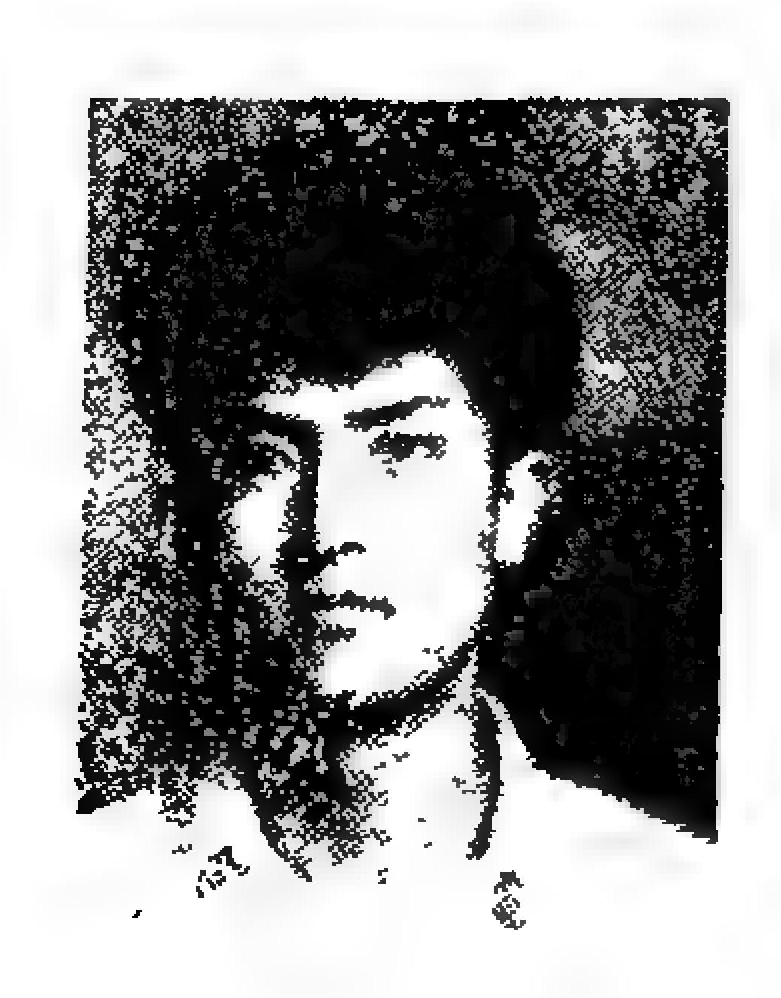
ان البشر يتعايشون مع الطبيعة ، فيحبونها كل الحب . ولكن ليس كل ما تقدمه لهم الطبيعة بسمات توحى برقة المشاعر والعواطف .

لقد هب الآن هؤلاء الاشقياء ، لكن الشجعان العنيدين يصارعون الطبيعة المسعورة مصارعة مستميتة فى سبيل كسب اغلى واعز ما لديهم — الحياة اى حق الوجود .

... ظل الباص يتقدم برغم سرعته البطيئة .

اخترق هدير المحرك غبار الرمال الثائرة وشق الضباب الكثيف ، وهو يبدو حينا كتهويدة ام حنون لطفلها الرضيع ، وحينا كبكاء حارق يصدره رضيع جائع ، وحينا كهدير رهيب تصدره الشلالات المتساقطة ، وحينا كلهاث عملاق يتسلق قمما خطرة حاملا على كتفه حملا ثقيلا . كما كان هذا الهدير يعطى الناس املا وقوة . . بل يؤثر فى نفوسهم تأثيرا عميقا ، ويشعرهم بأنهم ما زالوا على قيد الحياة ، ويدخل على قلوبهم الفرحة والسرور . ذلك ان الحركة والكفاح كليهما رمز للحياة ، فنتمنى لهما ان يدويا فى آذان الناس الى الابد .

كلمة عن المؤلف



محمد بقلاش من قومية الويغور ، ولد فى محافظة يانتشى بشينجيانغ عام ١٩٥٢ ، وبدأ ابداعه الادبى عام ١٩٨٠ ، وقد نشر مجموعات قصصية منها « الجزاء » و« الرفيق » و«ايل اعرج » و«ارض سهلية » . وقد فازت اعماله بجائزتين ادبيتين وطنيتين للاقليات القومية . وهو عضو فى اتحاد الكتاب الصينيين ، ويشتغل اليوم متفرغا للابداع الادبى فى فرع اتحاد الكتاب الصينيين بشينجيانغ .

الفهرس

خالدة .. بنت الخامسة عشرة ١

حصان وحشى اعرج ٣٣

شد همتك يا توربانى ٤٩

قلوب الاصدقاء ٨٩

رمال متحركة ١٢٣

مطبعة اللغات الاجنبية بكين
توزيع
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب
٢١ شارع تشه قونغ تشوانغ الغربى ، بكين ، الصين
ص . ب ٣٩٩ بكين — الصين
الرمز البريدى ١٠٠٠٤٤

哦！十五岁的哈丽黛哟
—中国穆斯林作家
小说选
*
外文出版社出版
（中国北京百万庄路24号）
邮政编码100037
北京外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司发行
（中国北京车公庄西路21号）
北京邮政信箱第399号 邮政编码100044
1991年（36开）第一版
（阿）
ISBN 7-119-01360-2/I·252（外）
00450
10-A-2601P

خالدة بنت الخامسة عشرة

— قصص لكتاب مسلمين صينيين

انتقل الدين الاسلامى — احد الاديان الثلاثة الكبرى فى العالم — الى الصين فى منتصف القرن السابع. وخلال اكثر من الف سنة انتشر هذا الدين وسط الاقليات القومية الصينية العشر انتشارا واسعا. وقد بلغ عدد المسلمين الصينيين حاليا اكثر من ١٧ مليونا، يستوطنون بصفة رئيسية فى مقاطعة قانسو وتشينغهاى وشنشى ويوننان وخبى وشاندونغ ومنطقتى شينجيانغ ونينغشيا الذاتيتى الحكم ومدينة بكين.

ان المسلمين خاصة والناس عامة فى العالم كله يحبون التعرف على حياة المسلمين الصينيين. ومن اجل ذلك اجرينا تحرير هذه القصص الخمس من تأليف كتاب مسلمين من قوميتين مسلمتين فى الصين، وهى ترسم حياة المسلمين الصينيين من مختلف النواحى، وهذه القصص هى: ((خالدة بنت الخامسة عشرة)) و((حصان وحشى اعرج)) و((شد همتك يا تورباني)) و((... الاصدقاء)) و ((رمال متحركة)).

اعد هذا الكتاب اقبال مجدى من قومية القاز...

دار النشر باللغات الاجنبية بكي...

ISBN 7-119-01360-2
10-A-2601P